

تفريغ السلسلة الصوتية

يا صادبي السجن

الصادرة عن إذاعة البيان



الطبعة الأولى 1446هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة
{يَا صَاحِبِي السِّجْنِ}
الصادرة عن إذاعة البيان

الطبعة الأولى

١٤٤٦ هـ

مركز إنتاج الأنصار



مؤسسة صرح الخلافة



الفهرس

المقدمة.....	٤
الدرس الأول: حب الله والصبر على الأذى فيه.....	٥
الدرس الثاني: الموت وعذاب القبر.....	١٥
الدرس الثالث: يوم القيامة وأهوالها.....	٢١
الدرس الرابع: وصف الدنيا وخستها ومدح الصمت.....	٣٢
الدرس الخامس: صفات عباد الرحمن.....	٤٢
الدرس السادس: التفكر والتدبر في نعم الله وآياته.....	٥٢
الدرس السابع: كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة.....	٦٨



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يسر إخوانكم في مؤسسة صرح الخلافة أن يقدموا لكم تفريغاً لسلسلة (يا صاحبي السجن) الصادرة عن إذاعة البيان، وهي من ٧ دروس. وتم مراجعتها نحويًا ولغويًا، وُجِدَ في السلسلة: علامات التنصيص للآيات والأحاديث والأقوال كل على حسبه، ووحدت كذلك الألوان للآيات والأحاديث والأبيات كل على حسبه، وخرجت الأحاديث النبوية. نسأل الله الكريم أن يفك أسرنا ويفرج كربهم.

إخوانكم في صرح الخلافة



الدرس الأول: حب الله والصبر على الأذى فيه

أعزاءنا المستمعين، تستمعون إلى سلسلة بعنوان: {يا صاحبي السجن}.

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

فهذه كلمات كتبتها في غيابات السجن وأشجانه وظلامه، وربطتها بالتوكل على الله ومنه وإحسانه. جعلتها تذكرة للمؤمنين، وتسلية لأهل البلاء عامة، ولأهل السجون خاصة. فمن الله عليّ وعليها، إذ يسّر خروجي وخروجها بهذه الحلة. فلا تخلو هذه الدنيا القصيرة من الابتلاء والاختبار؛ فهي سجن المؤمن وجنة الكافر. قال الله عنها: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [سورة الحديد: ٢٠].

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ فَكَيْفَ يَنَالُهَا *** صَفَوْا أَهَذَا قَطُّ فِي الْإِمْكَانِ
يَا عَاشِقَ الدُّنْيَا تَاهَبْ لِلَّذِي *** قَدْ نَالَهُ الْعُشَّاقُ كُلَّ زَمَانٍ
أَوْ مَا سَمِعْتَ بَلَى رَأَيْتَ مَصَارِعَ *** الْعُشَّاقِ مِنْ شَيْبٍ وَمِنْ شُبَّانٍ
لَوْ سَاوَتْ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ *** لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَّبُّ ذَا الْكُفْرَانِ
لَكِنَّهَا وَاللَّهِ أَحَقُّرُ عِنْدَهُ *** مِنْ ذَا الْجَنَاحِ الْقَاصِرِ الطَّيْرَانِ

ولما كانت هذه صفة الدنيا وخسستها، وما طُبِعَتْ عليه من البلاء، فهذا بُتِرَت ساقه، وذاك فقد عينه، وهذا ما عاد يستطيع الحركة، وتلك فقدت أبنائها، وهذا خسر أمواله، وهذا ذهب بيته، وهذا ابتلي في السجن. فجاءت هذه السلسلة لتسري عنهم بعض همومهم، إذ أن الله قد ابتلاهم ليختبرهم، فمن رضيّ فله الرّضا، ومن سخط فله السُّخط.

فارعني سمعك وفؤادك لعلّ الله أن يُفْرِجَ هَمَّكَ، ويكشفَ كَرْبَكَ، ويُعَلِّيَ درجتك. فيا صاحب السجن؛ آلامٌ وأحزانٌ، وآهاتٌ وأشجانٌ لمن ضَيَّقَ الله صدره، وأفراحٌ وسلامٌ، وأجْرٌ وونائمٌ لمن أنارَ الله بصيرته. فهو مع ضيقه، وكدره، وظلمته، وبلائه، ووحشته، وسوءه خلوةٌ



مع ربِّ الأرباب؛ طالما تمنَّيناها بألسنتنا دون قلوبنا، فغفلنا عنها حتى أدخلنا الله بها لِيُمَحِّصَنَا.

فترى يوسف عليه السلام يطلبُ من ربِّه، فيقول: {رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [سورة يوسف: ٣٣]. فقدَّم السجنَ والبلاءَ على المعصية، {فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة يوسف: ٣٤]. ولا تظنَّ بقولي: {رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ} أني أحبُّ السجنَ من عفو الله، لا. فالنعمةُ مع الشكر أحبُّ إليَّ من البلاءِ مع الصبر. فلقد مدح الله عبده سليمان عليه السلام لما أعطاه فشكر، مثل ما امتدح عبده أيوب عليه السلام لما ابتلاه فصبر، فقال في حقِّ الأول كما قال في حقِّ الثاني: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [سورة ص: ٣٠]. فاستعين بالله، فإن الله خلقك ولن يُضَيِّعَكَ. فكُنْ من الصابرين، يحبُّك الله، واصبر حتى تحصُلَ لك معيَّة الله. وتأمل في قوله تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [سورة آل عمران: ١٧٩]. نعم، ما كان الله لِيَذَرَكَ بالسَّعة والرخاء دون الامتحان والابتلاء، فالكلُّ حينها يدَّعي محبة الله. فما أسهل الدعوى وما أعزَّ المعنى! فكان لا بدَّ من محطَّات ابتلاءٍ وتمحيصٍ واختبار.

وضعني الله بواحدة منها، ما كنت لأعرف قدرها لو أن الله من عليَّ ووضعني بها، ألا وهي السِّجْن. فمنعت تلك النفسُ الأمارَةَ بالسُّوء من الدخول والخروج والراحة والسَّعة، نعمةً طالما تمتَّعت بها سنين دون شكرٍ لربِّها عليها. عزَّةً طالما اغترَّت بها، فما رعينها حقَّ رعايتها، فأبدلت ذلَّةً وانكسارًا.

فادَّعت تلك النفسُ الكاذبة محبة الله، وأنَّ الله أحبُّ إليها من كل شيء. فأراد الله أن يختبر صدقَ ما تدَّعي، ويُخرج خُبثَ ما تزعم، فحبسَ عنها نعمةً واحدةً من نعمه، فابتلاها بالسِّجْن. فكشفت عورتها وبدأت سوءتها، وإذا بها تشرك في حبِّ ربِّها غيره، تشرك معه حبَّ الناس، وحديثهم، ومجالسة الأهل، وأنيسهم. فإذا بتلك النفس تحبُّ الخلوة مع الزوجة أكثر من الخلوة مع ربِّها، تشتاق إلى الأولاد أكثر من شوقها إلى خالقها، تأنسُ



بالحديث مع الأهل والأصحاب أكثر من الأنس بكلام ربِّ الأرباب. تديم النظر في الهاتف وتقلب بين برامجه أكثر من قراءتها للقرآن الكريم، تفوته أذكار الصباح والمساء لأقلِّ الأسباب ولا تفوته برامج التواصل لأعظم الأسباب.

كم وكما ادَّعت تلك النفس الكاذبة محبة خالقها في كثيرٍ من المجالس؟ فلما ابتلاها بأن عورها، فضجرت وحزنت. فقد خلوت بمحبوبك الذي ادَّعت أنه أحبُّ إليك من كل شيء؛ فإن المحبَّ يأنسُ بالخلوة مع محبوبه ومناجاته. فعلام الضجر وعلام الحزن سواء كنت مذنباً أراد الله أن يطهرك من ذنبك بهذا السجن، أم كنت مظلوماً أراد الله أن يرفع درجاتك في الجنة بهذا؟ فهذا ليس محور البحث ولا ما قام عليه، إنما محوره أعظم من ذلك وأجل.

محوره دعوى محبة الله، فأبجر معي في هذا البحث لعلَّ الله أن يسرِّي عنك بعض هذه الهموم، لعلَّ نفسك تعي ما جاء فيها، وتخرج من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)} [سورة الصف]. لن أدخل معك في معنى المحبة وأسرارها وإنما سأضرب لك مثلاً من معانيها عند من كان يحبُّ غير الله عز وجل. كيف يكون هيامه لمحبوبه، يتسنى لك الوصول إلى جوهر ما أدندن حوله. لعلَّ الله أن يخفِّف عنك بعض ما أنت فيه، ويشفي قلبي وقلبك من ذلك الداء اللعين. فيقول قائلهم في محبوبه:

وَمِنْ عَجَبِ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ *** وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها *** ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

والطف منه قول قائل:

إِنْ قُلْتُ غَبَتْ فَقَلْبِي لَا يَصِدَّقُنِي *** إِذْ أَنْتَ فِيهِ مَكَانَ السَّرِّ لَمْ تَغِبِ

أَوْ قُلْتُ مَا غَبَتْ قَالَ الطَّرْفُ ذَا كَذِبٍ *** فَقَدْ تَحَيَّرْتُ بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ

ومنهم من صار يعرف بمحبوبته، فهذا يعرف بمجنون ليلي، وذاك بجميل بثينة، وهذا بكثير عزة. فيقول مجنون ليلي:



أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَى *** أَقْبِلُ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارِ
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفَنَ قَلْبِي *** وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارِ

وآخر يقول:

فَمَا فِي الْأَرْضِ أَشَقَى مِنْ مُحِبٍّ *** وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلُوَ الْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِئًا فِي كُلِّ حَالٍ *** مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لَاشْتِيَاقِ
فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ *** وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا حَذَرَ الْفِرَاقِ
فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلَاقِ *** وَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الْفِرَاقِ

ويقول ابن القيم رحمه الله في شدة اشتياق الرجل في كل مرة للجلوس مع حورائه في الجنة:

وَاضْرِبْ لَهُ مَثَلًا بِصَبِّ غَابَ عَنْ *** مَحْبُوبِهِ فِي شَاسِعِ الْبُلْدَانِ
وَالشَّوْقُ يُزْعِجُهُ إِلَيْهِ وَمَا لَهُ *** بِلِقَائِهِ سَبَبٌ مِنَ الْإِمْكَانِ

يعني يقول: أضرب لهم مثلاً بصب أي برجلٍ فتي صبٍ، غاب عن زوجته ومحبوبه في شاسع البلدان، في أبعد البلدان، والشوق يزعجه إليه وما له بلقائه سببٌ من الإمكان. يشتاق لأن يرجع لزوجته ومحبوبه، ولكن ليس له سببٌ من الإمكان.

وَإِنِّي إِلَيْهِ بَعْدَ طُولِ مَغْيِبِهِ *** عَنْهُ وَصَارَ الْوَصْلُ ذَا إِمْكَانٍ

بعد كل هذا الشوق والتلهف. وإني إليه بعد طول مغيبه عنه وصار الوصل ذا إمكان.

فيقول:

أَتَلَوَّمُهُ أَنْ صَارَ ذَا شُغْلٍ بِهِ *** لَا وَالَّذِي أَعْطَى بِلَا حُسْبَانٍ
شُغْلُ الْعَرُوسِ بِعَرْسِهِ مِنْ بَعْدِ مَا *** عَيَّنَتْ بِهِ الْأَشْوَاقُ طُولَ زَمَانٍ
بِاللَّهِ لَا تَسْأَلُهُ عَنْ أَشْغَالِهِ *** تِلْكَ اللَّيَالِي شَأْنُهُ ذُو شَانٍ
وَيَزِيدُ كُلُّ مِنْهُمَا حُبًّا لِحَبَا *** حُبِّهِ جَدِيدًا سَائِرَ الْأَزْمَانِ
حَتَّى إِذَا مَا وَاجَهَتْهُ تَقَابَلًا *** أَرَأَيْتَ قَطُّ تَقَابُلَ الْقَمَرَانِ؟



وَسَلِ الْمُتَيَّمُ كَيْفَ مَجْلِسُهُ مَعَ *** الْمَحْبُوبِ فِي رُوحٍ وَفِي رِيحَانٍ
أَتْرَاهُمَا ضَجْرَيْنِ مِنْ ذَا الْعَيْشِ لَا *** وَحَيَاةِ رَبِّكَ مَا هُمَا ضَجْرَانِ
يَا رَبِّ غَفْرًا قَدْ طَغَتْ أَقْلَامُنَا *** يَا رَبِّ مَعْدِرَةً مِنَ الطُّغْيَانِ

ويقول آخر: العشق يشجع قلب الجبان، ويصفي ذهن الغبي، ويسخي كف البخيل،
ويدل عزة الملوك، ويسكن نوافر الأخلاق.

وهذه امرأة العزيز شغف حب يوسف عليه السلام، سوداء قلبها، فراودته عن نفسه،
وغلقت الأبواب، وقالت: "هيت لك".

فاجتمعت عليه دواعي الرغبة واللذة. فلما قارنها بمحبة الله ورضوانه، طغت محبة الله
عليها، فصاح: {رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ
وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [سورة يوسف: ٣٣]. وفي هذا الباب تطول القصص وتعظم الأخبار،
لكن العبرة أن تعرض ما ألم بك وأحاط من ابتلاء واختبار على محبتك لله الواحد القهار.
عند ذلك يتميز الصادق من الكاذب، والخبيث من الأخيار.

قال النبي ﷺ كما في الحديث المتفق عليه: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ:
مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ
يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ).

فترى بلالاً يُعَذَّبُ في رمضاء الصحراء، يُوضع على صدره الحجر العظيمة ويضرب
بالسياط حتى ينزف الدم من جسده، وهو صابرٌ يقول: "أحد أحد". فيسأله الصحابة بعد
أن كشف الله عنه البلاء: كيف تحملت يا بلال ذلك العناء؟ فيقول: "مزجت حلاوة
الإيمان مع مرارة العذاب، فطغت حلاوة الإيمان على مرارة العذاب فلم أعد أشعر
بالعذاب".

نعم، ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما
سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه



كما يكره أن يلقي في النار. وهذا ما أراد النبي ﷺ إيصاله لخباب بن الأرت رضي الله عنه لما جاء يقول له: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، ألا ترى ما نحن فيه؟ قال له بعد أن غضب: (قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمُنْشَارِ فَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ فِيمَا دُونَ عَظْمِهِ وَلَحْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ [...] وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)^١. فما عساه أن يقول لنا، وما لقينا عشر معشار ما لقوا؟

قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ} [سورة البقرة: ٢١٤]. يا الله، ما الذي ألم بالرسول والذين آمنوا معه حتى يقولوا: متى نصر الله؟ ألا إنها البأساء والضراء والزلزلة. {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ} [سورة البقرة: ٢١٤].

{الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)} [سورة العنكبوت]. إلى أن قال جل وعلا: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} [سورة العنكبوت: ١٠]، {فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)} [سورة العنكبوت].

فاعلم يا صاحبي أن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلى المرء على قدر دينه، فمن كان في دينه شدة، شُدِّدَ له في بلائه، ومن كان في دينه رقة، خُفِّفَ له في بلائه. ولا يزال البلاء في المؤمن في نفسه وأهله وماله حتى يلقي الله وما عليه خطيئة. فلا تحزن إذا

^١ رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود من طريق خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ رضي الله عنه.



اشتد البلاء، فلربما اشتاق الله إلى اللقاء، فأخذ يطهرك من ذنوبك، ويرفع درجاتك في الجنة. فلا يستخفك الشيطان، ويستدرجك فيحرمك لذة العبادة بالضرر وبالتأفف.

يا دني الهمة، يا دني الهمة، يا ضعيف العزم، أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم، ونوح لأجله نوح، وامتنح فيه هود، وصبر على عقباته صالح، ورُمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وأوذي في ضيفه لوط، وقال: {هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)} [سورة هود]. وفقد الولد يعقوب، {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)} [سورة يوسف]. وبيع يوسف بثمن بخس، {فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)} [سورة يوسف]. وأوذي في قومه شعيب، وذو النون {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)} [سورة الأنبياء]. وصبر على حمق بني إسرائيل موسى، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسليمان فتن.

وألقى الله على كرسيه جسداً، ثم أناب، وعاش في البراري والصحراء عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ. مات أبناؤه، قُتل أصحابه، حُصر في الشعب، طُور في الغار، كُسرت رباعيته، شُج رأسه، طُعِن في عرضه، أُخرج من دياره. أتناها أنت باللعب وباللهو؟ ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة. فهل من مشمر لها؟

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتُ رَخِيصَةً *** بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الْكَسَلَانِ
يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا *** فِي الْأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لَا اثْنَانِ
يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ أَيْنَ الْمُشْتَرِي *** فَلَقَدْ عُرِضَتْ بِأَيْسَرِ الْأَثْمَانِ
يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ *** فَالْمَهْرُ قَبْلَ الْمَوْتِ ذُو إِمْكَانٍ
يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَصَبَّرَ الـ *** خُطَّابُ عَنْكَ وَهُمْ ذَوُو إِيْمَانٍ؟
يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَوْلَا أَنَّهَا *** حُجِبَتْ بِكُلِّ مَكَارِهِ الْإِنْسَانِ
مَا كَانَ عَنْهَا قَطُّ مِنْ مُتَخَلِّفٍ *** وَتَعَطَّلَتْ دَارُ الْجَزَاءِ الثَّانِي
لَكِنَّهَا حُجِبَتْ بِكُلِّ كَرِيهَةٍ *** لِيُصَدَّ عَنْهَا الْمُبْطِلُ الْمُتَوَانِي



وَتَنَالَهَا الْيَمَمُ الَّتِي تَسْمُو إِلَى *** رُتَبِ الْعُلَى بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

فاعلم أن الله كتب لك في سجنك أيامًا معدودة، لابد تقضيها. سواء عليك صبرت أم جزعت. قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (٢٣) [سورة الحديد]. نعم، {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [سورة الحديد: ٢٣].

وقال: {أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (١٦٥) [سورة آل عمران]. لكن لا ضير على أهل التوحيد والإيمان، فإن النبي ﷺ قال: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).^١ قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (٢١٦) [سورة البقرة].

فإياك إياك والجزع، فإنما الصبر عند الصدمة الأولى. فلا يفوتك قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (١٥٧) [سورة البقرة]. قل: "حسبي الله ونعم الوكيل"، فإن هذه الكلمة قالها إبراهيم عليه السلام لما ألقاه قومه في النار، فكانت عليه النار بردًا وسلامًا. وقالها محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} (١٧٣) [سورة آل عمران].

فكان الجزاء: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ} وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} (١٧٤) [سورة آل عمران]. قل: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، فما دعا بها مسلم في شيء قط إلا استجاب له.



روى الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قتل رسول الله ﷺ: (مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَا ضِيَ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا). فقيل: "يا رسول الله، ألا نتعلمها؟" فقال: (بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا)^١.

قال تعالى: {إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)} [سورة البقرة]. وقال النبي ﷺ: (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)^٢.

فالجأ إلى الله، فالجأ إلى الله، وأقر بذنبك، واعترف بنعمه عليك، وألح عليه بالدعاء، وتحَرَّ أوقات الدعاء المستجابة: الثلث الأخير من الليل، وبين الأذان والإقامة، تحرَّه في السجود، في أدبار الصلاة المكتوبة، عند لقاء العدو، في آخر ساعة بعد العصر من يوم الجمعة، وعند الفطر للصائم، تحرَّه في ليلة القدر، وأظهر افتقارك إلى رحمة الله.

وادعُ دعاء المضطر ليستجيب لك، وتأمل قوله تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)} [سورة النمل]. ألا وإن الدعاء سلاح المؤمن، وإنه لا يغني حذر من قدر، وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل. وإن البلاء لينزل، فيتلقاه الدعاء، فيتعالجان إلى يوم القيامة، فأيهما غلب وقع. وفي الحديث: "لا يرد القضاء إلا الدعاء".

فرد المظالم إلى أهلها، وتحَرَّ المطعم الحلال، والمشرب الحلال، والملبس الحلال. ثم قم وتوضأ، واستقبل القبلة، وارفع يديك إلى الله، واحمده واثن عليه، ثم صلِّ على النبي ﷺ.

^١ قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم؛ إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، فإنه مختلف في سماعه من أبيه. وتعقبه الذهبي بقوله:

وأبو سلمة: لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة.

^٢ رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.



وأقر بذنبك، فقل: (اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)¹.

وقدم بين يدي الله حاجتك، قدم بين يدي حاجتك التوبة والاستغفار، واشكره على نعمه، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته، واسأله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب، وإذا استنصر به نصر.

فقل: "يا رحمن يا رحيم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد". ثم اذكر حاجتك، وألح على الله فيها. ثم اختتم دعائك بالصلاة على النبي ﷺ، واحمد الله تعالى، وثق بإجابة الله لك. ففوض أمرك إلى الله، ثم أبشر بإحدى ثلاث: إما أن يُعَجِّلَ الله لك الإجابة في الدنيا، وإما أن يصرف عنك من السوء مثلها، وإما أن يدخرها لك في الآخرة. فإذا كان يوم العرض والحساب، ورأى العبد أجر الادخار، تمنى أن لم يُعَجِّلَ الله له من دعائه شيئاً في الدنيا. ولكنكم تستعجلون، وإن الله ليستجيب للعبد ما لم يستعجل. [قال رسول الله ﷺ: (لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ [...] مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ)] قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعجل؟، قال: (يقول: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِبْ لِي) [متفق عليه].

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه. نتوقف إن شاء الله عند هذا الفصل، ونكمل بإذن الله جل وعلا في الدرس القادم. أسأل الله عز وجل أن ينفعنا بما سمعنا، هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد. جزاكم الله خيراً.

¹ رواه البخاري.



الدرس الثاني: الموت وعذاب القبر

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

تحدثنا في هذه السلسلة سابقاً عن بعض ما يسري عنك من البلاء من محبة الله جل وعلا، والصبر على الأذى والبلاء، وما يرفع الله به البلاء، أقصد الدعاء. أما اليوم، فحديثي إليك عن نهاية محتومة للبلاء، ألا وهي قول الله: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ} [سورة النساء: ٧٨]. {وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ} فتذكر، يا صاحب السجن، عندما يضعونك في قبرك في غرفة صغيرة مظلمة ما جاوزت طولك، غير موسدة ولا ممهدة، يحيط بها التراب من كل جانب، يملأها الوحشة والظلام، ليس فيها أم حنون ولا أب شفيق ولا أخ حميم. تمر عليك الليالي والأيام، فيكون الليل والنهار عندك سواء. قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)} [سورة الرحمن]. وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، قال فانتهينا إلى القبر ولما يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير، قال: وفي يده عود ينكت به الأرض. فرفع رأسه ثم قال: (اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ)، قالها مرتين أو ثلاثاً. ثم قال: (إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين عنه حين يُقال له: يا هذا، من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول المؤمن: ربي الله وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، وذلك قول الله: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [سورة إبراهيم: ٢٧]). قال: (ثم ينادي من السماء: أن قد صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفتح له فيها مد بصره، وإن الكافر، فذكر موته)، ثم قال: (تُعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ها لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ها لا أدري. فيقولان له: من هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: ها لا أدري. فينادي من السماء: أن كذب، فأفرشوا



له من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه في قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ثم يُقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد، لو ضرب بها جبل لصار ترابًا، فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب، إلا الثقلين، فيصير ترابًا، ثم تُعاد فيه الروح في القبر، إما يثبتك الله، وإما يخذلك الله^١. أنت تستطيع أن يثبتك الله عز وجل وتستطيع أن تخسر علاقتك مع الله في الدنيا، فلا يثبتك في قبرك. قد لا يثبتك الله إن كنت ممن يتأخر عن الصلاة. قد لا يثبتك الله إن كنت ممن يسعى في ظلم الآخرين. قد لا يثبتك الله إن كنت ممن يقر المنكر والحرام في بيتك، أمام الناس تتقي، لكن إذا خلوت عصيت الله.

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ *** خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ

وفي الحديث الذي يرويه البخاري، قال النبي ﷺ: (إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ، فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِ مُونِي، قَدِ مُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟)، وعند مسلم قال النبي ﷺ: (يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ، يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ). وعندما فرغ الصحابة من دفن أحدهم قال عليه السلام: (اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُّوا لَهُ التَّثْبِيتَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ)^٢، وهو ما يُسمى فتنة القبر. فلقد بين النبي ﷺ، كما عند البخاري: (أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ). قال ﷺ، كما روى الترمذي: (إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ)^٣. ومرت النبي ﷺ على قبر دُفن حديثًا فقال: (رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفِلُونَ، يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ، أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ)^٤.

^١ هذه الروايات للحديث عن أبي داود جمعها ابن الأثير في جامع الأصول، وروي باختلاف يسير عن عبد الرزاق، وأحمد، وابن ماجه.

^٢ رواه أبو داود، وصححه الحاكم.

^٣ قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث هشام بن يوسف.

^٤ رواه ابن المبارك في الزهد من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.



فإلى متى وأنت مقصر في الصلاة؟ إلى متى وأنت متساهل في طاعة الله؟ إلى متى وأنت تتأخر عن التوبة إلى الله، تنتظر حتى تدفن وتموت؟

عجبت لمن يتم له السرور *** بدار كل ما فيها غرور
وكيف يلذ ساكنها بعيش *** ويعلم أن مسكنه القبور

فلا يغركم استواء تلك القبور، فما أشد تفاوتهم فيها. وروي أن علياً رضي الله عنه قال: "يا عباد الله، الموت الموت ليس منه فوت. إن أقمت له أخذكم، وإن فررت منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم. فالنجاة، النجاة! والوهى، الوهى! فإن وراءكم طالباً حثيثاً، ألا وهو القبر. ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران. ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث مرات، يقول: "أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان". فاعلم، أخي، أنه لا يتمنى الرجوع للعالم إلا الشهداء، لأنهم لم يجدوا شدة الموت. فنسأل الله لنا ولكم الشهادة في سبيله.

دخل أحد السلف المقبرة فقال:

أتيت القبور فنَادَيْتُهَا *** فَأَيْنَ الْمَعْظَمُ وَالْمُحْتَقَرُ
وَأَيْنَ الْمَدِلُّ بِسُلْطَانِهِ *** وَأَيْنَ الْمُمَجَّدُ بَيْنَ الْبَشَرِ
وَأَيْنَ قُصُورُهُمُ الشَّامَخَاتُ *** وَأَيْنَ مَحَاسِنُ تِلْكَ الصُّورِ
تَفَانُوا جَمِيعاً فَمَا مُخْبِرٌ *** وَمَاتُوا جَمِيعاً وَمَاتَ الْخَبِرُ
فَيَا سَائِلِي عَنِ أَنْاسٍ مَضَوْا *** أَمَا لَكَ فِيمَا تَرَى مُعْتَبِرُ

دفن عمر بن عبد العزيز أحد أصحابه، فلما انصرف من الجنازة، وانصرف معه الناس، أخذ يعظ الناس فقال: "ناداني القبر من خلفي: يا عمر بن عبد العزيز، ألا تسألني ماذا صنعت بالأحبة فقلت: بلى. فقال القبر: "أحرقت الأكفان، ومزقت الأبدان، ومصصت اللحم ومصصت الدم، وأكلت اللحم". ثم قال لي: "ألا تسألني عن الأوصال؟" قلت: بلى. فقال: "نزع الكفين من الذراعين، والذراعين من العضدين، والعضدين من الكتفين،



والوركين من الفخدين، والفخدين من الركبتين، والركبتين من الساقين، والساقين من القدمين". ثم بكى عمر رضي الله عنه وقال: "ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وشبابها هرم، وحيها يموت. فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها. فالمغرور من اغترَّ بها. أين سكانها الذين بنوا مدائنهم، وسقوا أنهارها، وشربوا من مائها، وغرسوا أشجارها؟ أقاموا فيها أيامًا قصيرة، غرَّتهم بصحتهم فاغترَّوا بنشاطهم، فركبوا المعاصي. اسألهم ماذا صنع التراب بأبدانهم، والرمل بأجسادهم، والديدان بعظامهم. كانوا في هذه الدنيا على أسرة ممهدة، وفرش منضدة، بين خدم يخدمون، وأهل يكرمون، وجيران يعضدون. فإذا مررت بهم، فنادهم إن كنت مناديًا، فاسألهم: اسأل غنيهم ما بقي من غناه، واسأل فقيرهم ما بقي من فقره. اسألهم عن الألسن التي كانوا يتكلمون بها، وعن الأعين التي كانوا ينظرون بها. اسألهم عن الجلود الرقيقة، والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة. ما صنعت الديدان بها؟ محت الحسان، وكسرت الفقار، وأبانت الأحشاء، ومزقت الأشلاء. أين حجابهم ونوابهم؟ أين خدمهم وعبيدهم وجمعهم ومكنونهم؟ والله، ما فرشوا فراشًا، ولا وضعوا هناك متكأً، ولا غرسوا شجرة. أليسوا هم في منازل الخلوات؟ أليس الليل والنهار عليهم سواء؟ أليسوا هم في ظلماء قد حيل بينهم وبين العمل؟ فارقوا الأحبة فكم من ناعم وناعمة، أصبحوا ووجوههم بالية، وأجسادهم من أعناقهم نائية، وأوصالهم متمزقة. قد سالت العيون على الوجنات، وامتألت الأفواه دمًا وصديدًا، ودبت دواب الأرض في أجسادهم فمزقت أعضائهم. ثم لم يلبثوا، والله، إلا يسيرًا، حتى عادت العظام رميمة. قد فارقوا الحقائق، وصاروا بعد السعة إلى الضيق. توزعت الورثة ديارهم وتراثهم. فمنهم والله الموسع له في قبره. فارقوا الأحباب وسكنوا التراب، وواجهوا الحساب.

قال زين العابدين رحمه الله وأختتم بها:

لَيْسَ الْغَرِيبُ غَرِيبَ الشَّامِ وَالْيَمَنِ *** إِنَّ الْغَرِيبَ غَرِيبُ اللَّحْدِ وَالْكَفَنِ

إِنَّ الْغَرِيبَ لَهُ حَقٌّ لِّغُرْبَتِهِ *** عَلَى الْمُقِيمِينَ فِي الْأَوْطَانِ وَالسَّكَنِ

لَا تَهْرَنَّ غَرِيبًا حَالَ غُرْبَتِهِ *** الدَّهْرُ يَهْرُهُ بِالْذَّلِّ وَالْمِحَنِ

سَفَرِي بَعِيدٌ وَزَادِي لَنْ يُبَلِّغَنِي *** وَقُوتِي ضَعُفْتُ وَالْمَوْتُ يَطْلُبُنِي



وَلِي بَقَايَا ذُنُوبٍ لَسْتُ أَعْلَمُهَا *** اللَّهُ يَعْلَمُهَا فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ
 مَا أَحْلَمَ اللَّهُ عَنِّي حَيْثُ أَمَهَلَنِي *** وَقَدْ تَمَادَيْتُ فِي ذَنْبِي وَيَسْتُرْنِي
 تَمُرُّ سَاعَاتُ أَيَّامِي بِلا نَدَمٍ *** وَلَا بُكَاءٍ وَلَا خَوْفٍ وَلَا حَزَنٍ
 أَنَا الَّذِي أُغْلِقُ الْأَبْوَابَ مُجْتَهِدًا *** عَلَى الْمَعَاصِي وَعَيْنُ اللَّهِ تَنْظُرُنِي
 يَا زَلَّةً كُتِبَتْ فِي غَفْلَةٍ ذَهَبَتْ *** يَا حَسْرَةً بَقِيَتْ فِي الْقَلْبِ تُحْرِقُنِي
 دَعْنِي أَنْوَحُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْدُبُهَا *** وَأَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالتَّذْكِيرِ وَالْحَزَنِ
 دَعْ عَنْكَ عَذْلِي يَا مَنْ كَانَ يَعْذُلُنِي *** لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بِي كُنْتَ تَعْذِرُنِي
 دَعْنِي أَسْحُ دُمُوعًا لَا انْقِطَاعَ لَهَا *** فَهَلْ عَسَى عَبْرَةٌ مِنْهَا تُخَلِّصُنِي
 كَأَنَّنِي بَيْنَ جَلِ الْأَهْلِ مُنْطَرِحًا *** عَلَى الْفِرَاشِ وَأَيْدِيهِمْ تُقَلِّبُنِي
 وَقَدْ تَجَمَّعَ حَوْلِي مَنْ يَنْوَحُ وَمَنْ *** يَبْكِي عَلَيَّ وَيَنْعَانِي وَيَنْدُبُنِي
 وَقَدْ أَتَوْا بِطَبِيبٍ كَيْ يُعَالِجَنِي *** وَلَمْ أَرَ الطَّبَّ هَذَا الْيَوْمَ يَنْفَعُنِي
 وَاشْتَدَّ نَزْعِي وَصَارَ الْمَوْتُ يَجْذِبُهَا *** مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بِلا رَفْقٍ وَلَا هَوْنٍ
 وَاسْتَخْرَجَ الرُّوحَ مِنِّي فِي تَغَرُّغِهَا *** وَصَارَ رِيقِي مَرِيرًا حِينَ غَرَّغَرْنِي
 وَغَمَّضُونِي وَرَاحَ الْكُلُّ وَانْصَرَفُوا *** بَعْدَ الْإِيَّاسِ وَجَدُّوا فِي شِرَا الْكَفَنِ
 وَقَامَ مَنْ كَانَ حُبُّ النَّاسِ فِي عَجَلٍ *** نَحْوَ الْمُغْسِلِ يَأْتِينِي يُغَسِّلُنِي
 وَقَالَ يَا قَوْمِ نَبْغِي غَاسِلًا حَذِقًا *** حُرًّا أَدِيبًا أَرِيبًا عَارِفًا فَطِنَ
 فَجَاءَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَجَرَّدَنِي *** مِنَ الثِّيَابِ وَأَعْرَانِي وَأَفْرَدَنِي
 وَأَوْدَعُونِي عَلَى الْأَلْوَاكِ مُنْطَرِحًا *** وَصَارَ فَوْقِي خَرِيرُ الْمَاءِ يُنْظِفُنِي
 وَأَسْكَبَ الْمَاءَ مِنْ فَوْقِي وَغَسَّلَنِي *** غُسْلًا ثَلَاثًا وَنَادَى الْقَوْمَ بِالْكَفَنِ
 وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا لَا كِمَامَ لَهَا *** وَصَارَ زَادِي حَنُوطِي حِينَ حَنَطَنِي
 وَأَخْرَجُونِي مِنَ الدُّنْيَا فَوَا أَسْفَا *** عَلَى رَحِيلٍ بِلا زَادٍ يُبَلِّغُنِي
 وَحَمَلُونِي عَلَى الْأُكْتافِ أَرْبَعَةً *** مِنَ الرِّجَالِ وَخَلْفِي مَنْ يُشَيِّعُنِي
 وَقَدَّمُونِي إِلَى الْمَحْرَابِ وَانْصَرَفُوا *** خَلْفَ الْإِمَامِ فَصَلَّى ثُمَّ وَدَّعَنِي
 صَلَّوْا عَلَيَّ صَلَاةً لَا رُكُوعَ لَهَا *** وَلَا سُجُودَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمَنِي



وَأَنْزِلُونِي إِلَى قَبْرِي عَلَى مَهْلٍ *** وَقَدِّمُوا وَاحِداً مِنْهُمْ يُلَحِّدُنِي
وَكَشِّفَ الثُّوبَ عَن وَجْهِ لِيَنْظُرْنِي *** وَأَسْكِبِ الدَّمَعَ مِنْ عَيْنَيْهِ أَغْرَقَنِي
فَقَامَ مُحْتَرِماً بِالْعَزَمِ مُشْتَمِلاً *** وَصَفَّفَ اللَّبْنَ مِنْ فَوْقِي وَفَارَقَنِي
وَقَالَ هُلُّوا عَلَيْهِ التُّرْبَ وَاغْتَنِمُوا *** حُسْنَ الثَّوَابِ مِنَ الرَّحْمَنِ ذِي الْمَنِّ
فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ لَا أُمُّ هُنَاكَ وَلَا *** أَبُّ شَفِيقٌ وَلَا أَخٌ يُؤَدِّسُنِي
فَرِيدٌ وَحِيدُ الْقَبْرِ، يَا أَسَفًا *** عَلَى الْفِرَاقِ بِلَا عَمَلٍ يُزَوِّدُنِي
وَهَالِي صُورَةً فِي الْعَيْنِ إِذْ نَظَرْتُ *** مِنْ هَوْلٍ مَطْلَعٍ مَا قَدْ كَانَ أَدْهَشَنِي
مِنْ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ مَا أَقُولُ لَهُمْ *** قَدْ هَالَنِي أَمْرُهُمْ جِدًّا فَأَفْزَعَنِي
وَأَقْعَدُونِي وَجَدُّوا فِي سُؤَالِهِمْ *** مَالِي سِوَاكَ إِلَهِي مَنْ يُخَلِّصُنِي
فَأَمُنُّ عَلَى بَعْفوٍ مِنْكَ يَا أَمَلِي *** فَإِنِّي مُوثِقٌ بِالذَّنْبِ مُرْتَهِنٌ
تَقَاسَمَ الْأَهْلُ مَالِي بَعْدَ مَا انْصَرَفُوا *** وَصَارَ وَزِيرِي عَلَى ظَهْرِي فَأَثْقَلَنِي
وَاسْتَبَدَلْتُ زَوْجَتِي بَعْلًا لَهَا بَدَلِي *** وَحَكَمْتُهُ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالسَّكَنِ
وَصَيَّرْتُ وَلَدِي عَبْدًا لِيَخْدُمَهُ *** وَصَارَ مَالِي لَهُمْ حَلًّا بِلَا ثَمَنِ
فَلَا تَغُرَّنِكَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا *** وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِهَا بِالْأَهْلِ وَالْوَطَنِ
وَانْظُرْ إِلَى مَنْ حَوَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا *** هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْحَنْطِ وَالْكَفَنِ
خُذِ الْقِنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَا *** لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا رَاحَةُ الْبَدَنِ
يَا زَارِعَ الْخَيْرِ تَحْصُدْ بَعْدَهُ ثَمَرًا *** يَا زَارِعَ الشَّرِّ مَوْقُوفٌ عَلَى الْوَهَنِ
يَا نَفْسُ كُفِّي عَنِ الْعِصْيَانِ وَاكْتَسَبِي *** فِعْلًا جَمِيلًا لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنِي
يَا نَفْسُ وَيَحْكُ ثُوبِي وَاعْمَلِي حَسَنًا *** عَسَى تُجَازِينَ بَعْدَ الْمَوْتِ بِالْحَسَنِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُمَسِينًا وَمُصْبِحِينَ *** مَا وَضَّاءَ الْبَرْقُ فِي شَامٍ وَفِي يَمَنِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا *** بِالْخَيْرِ وَالْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ وَالْمَنَنِ

فهذه محطة، لو تفكرت بها، لزال همك ولقويت عزيمتك. وسنتكلم إن شاء الله في المرة القادمة عن أهوال يوم الحساب وشدته، لعل الله أن يسري عنك بعض ما أنت فيه. هذا، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وجزاكم الله خيراً.



الدرس الثالث: يوم القيامة وأحوالها

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد، حديثي إليكم في هذه السلسلة، سلسلة {يَا صَاحِبِي السِّجْنِ}، عن يوم الحساب وشدته، ومآل الكافر وسجنه. قال جل وعلا: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨)} [سورة الزمر]. وقال: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأُزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَازِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)} [سورة غافر].

ذكر عن يحيى بن معاذ الرّازي رحمه الله أنه قرأ في مجلسه: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا (٨٦)} [سورة مريم]. قال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَهَلًا مَهَلًا، غَدًا تُحْشَرُونَ إِلَى الْمَوْقِفِ حَشْرًا حَشْرًا، وَتَأْتُونَ مِنَ الْأَطْرَافِ فَوْجًا فَوْجًا، وَتَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فَرْدًا فَرْدًا، وَتُسْأَلُونَ عَمَّا فَعَلْتُمْ حَرْفًا حَرْفًا، وَتُقَادُ الْأُولِيَاءُ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَفْدًا، وَيُرَدُّ الْعَاصُونَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَرْدًا وَرْدًا، وَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ حِزْبًا حِزْبًا. كُلُّ ذَلِكَ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَيُجَاءُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ. وَيَلَّا وَيَلَّا. إخواني، الويل من يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة. يوم الراجفة، يوم الأُزفة يوم القيامة يوم الحسرة والندامة ذلك يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم المناقشة، يوم المحاسبة، يوم الموازنة، يوم المساءلة، يوم الزلزلة، يوم الصيحة، يوم الحاقة، يوم القارعة، يوم النشور، {يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)} [سورة النبأ]، هو يوم التغابن {يَوْمَئِذٍ يَصُدُّ النَّاسُ أَسْتَاتًا لِّئَرْوَا أَعْمَالَهُمْ (٤٠)}



{٦} [سورة الزلزلة]، {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [سورة آل عمران: ١٠٦]، {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا} [سورة الدخان: ٤١]، {يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ} [سورة الطور: ٤٦]، {يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا} [سورة لقمان: ٣٣]، {وَمَا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} (٧) [سورة الإنسان]، {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ سَوْفَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} (٥٢) [سورة غافر]، {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا} [سورة النحل: ١١١]، {يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} (٢) [سورة الحج].

وعند البخاري قال النبي ﷺ: (يُجْمَعُ النَّاسُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفَذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي،



اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَى، فَيَأْتُونِ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرِيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا؛ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَارْفَعْ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمِّي يَا رَبِّ أُمِّي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمَيْرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى).

فيعرضون على ربهم للحساب، ففي الحديث: (لَا تَزُولُ قَدِيمًا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيَمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيَمَا أَبْلَاهُ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيَمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟)¹.

أما الكافر والمنافق، فيحاسبون أمام الخلائق، فيشهد عليهم الملائكة، فينكرون، فتشهد عليهم الأيام والليالي، فينكرون. فتشهد عليهم الأرض والناس والأموال، فينكرون، ثم يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون.

وصف الله حالهم فقال: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ

¹ قال المنذري: رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح واللفظ له.



أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) [سورة فصلت]. ثم يبين الله تعالى مصيرهم فيقول: {فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)}. فإن يصبروا على العذاب في النار فالنار مأواهم، وإن يسألوا الرجوع إلى الدنيا ليستأنفوا العمل الصالح، لا يجابوا إلى ذلك ولا تقبل لهم أعدار.

أما المؤمن، فيخلو به الله عز وجل وحده، فيقرره بذنوبه، فيقول له: أتذكر يوم كذا وكذا؟ يذكره ببعض غدراته في الدنيا، حتى إذا ظن أنه هلك، قال: يا رب، ألم تغفر لي؟ فيقول جل وعلا: سترتها عليك في الدنيا، وأنا الآن أغفرها لك اليوم. ادخل الجنة!

عندها تتطایر الصحف، فإذا تطايرت لا يعرف خليل خليله. أما المؤمن فيأخذ كتابه بيمينه، ينادي ويقول: {هَآؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ (٢٠)} [سورة الحاقة].

وأما الكافر والمنافق، فيعلم ما في كتابه، فيحاول إخفاء شماله، لكن ليس هناك مكان ولا لباس، فيجعلها وراء ظهره. فيأتيه كتابه بشماله وراء ظهره، فيندب ويتحسر ويصرخ ويقول: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩)}، فيقال: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)} [سورة الحاقة].

فيحاول أن يقرأ كتابه، فيرى ما له من سيئات، ويرى ما فيه من أمور كانت في نظره صغيرة، فيقول: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا} [سورة الكهف: ٤٩]؟ ثم يساقون إلى الميزان لتوزن أعمالهم بميزان دقيق له كفتان توضع فيه أعمال العباد، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)} [سورة الزلزلة].



عندها توضع أعمال الكافر أو المنافق، فيحاول أن يثقل موازينه، فيلقي نفسه في الميزان، وهذا قوله تعالى: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)} [سورة الكهف]. قال عليه السلام: (يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمُوسَى فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَيَّ هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَيَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ) [رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم].

فانظر، رعاك الله، إلى الملائكة الذين وصفهم النبي ﷺ، كما في الحديث الذي يرويه أبو ذر قال رضي الله عنه: "قرأ رسول الله ﷺ: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)} [سورة الإنسان] حتى ختمها. ثم قال: (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتْ - أي ثقلت - السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَيْطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَهَنَّمَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ - يعني إلى الطرقات - تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ - بالدعاء-). قال أبو ذر: "والله لوددت أني شجرة تعضد". ثم يرد المؤمنون الحوض لما بهم من العطش، ولكل نبي حوض، وأعظمها حوض النبي محمد ﷺ، الذي يأتيه ماؤه من نهر الكوثر، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، أطيب من المسك، أنيته ذهب وفضة كعدد النجوم، من شرب منه شربة لا يظلمأ بعدها أبداً.

فليت شعري: أنهنأ برؤيته ﷺ وضحكه في وجوهنا، أم نهنا لأننا شربنا من يديه الشريفتين؟ عند هذا الموقف، يفاجأ النبي ﷺ أن الملائكة تمنع قوماً من أمته عن حوضه ﷺ، فيقول: (يَا رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيُقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ)^٢، يقول عليه السلام: (فَأَقُولُ: بُعْدًا بُعْدًا - أَوْ قَالَ: - سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي)^٣. وفي آخر أيام

^١ رواه أحمد وابن ماجه والترمذي، وقال: حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

^٢ رواه أحمد من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه، وروى البخاري ومسلم بنحوه بألفاظ مقاربة من طريق سهل بن سعد رضي الله عنه.

^٣ رواه أحمد من طريق أبي سعيد الخدري، وروى البخاري ومسلم بنحوه بألفاظ مقاربة من طريق سهل بن سعد رضي الله عنه.



الحشر، يتبع الكفار آلهتهم التي عبدوها، يحشرون على وجوههم مغلولة أعناقهم، يحشرون جماعات كقطعان الماشية يحشرون إلى النار، وبئس المصير. ويبقى المؤمنون والمنافقون، فيكشف الله تعالى عن ساقه، ويدعون إلى السجود، فلا يستطيعون. يدعون إلى السجود، فلا يستطيع السجود إلا المؤمنون. أما المنافقون الذين كانوا يصلون رياءً وسمعة، فتتصلب ظهورهم كقطعة واحدة، لا يستطيعون السجود. فهذا قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)} [سورة القلم]. وفي المتفق عليه، قال ﷺ: (يُكْشَفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسَمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا).

عندها ينصب الصراط، ويعطى المؤمنون من النور على قدر أعمالهم، ويطفأ نور المنافقين. فيأتي قوله ﷺ كما في الحديث الصحيح: (بَشِّرِ الْمَشَائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)¹. هنا يقول تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)} [سورة الحديد].

وينصب الصراط على نار جهنم ليعبر عليه المؤمنون إلى الجنة، أدق من الشعر أحد من السيف. المكان كله ظلام يشوبه لهيب النار، القلوب بلغت الحناجر، الوجوه مسودة، الموقف شديد. يصيحون ويقولون: "يا رب، سَلِّمْ سَلِّمْ! يا رب، سَلِّمْ سَلِّمْ!" قال النبي ﷺ كما عند مسلم في وصف الصراط: (مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَالَالِيبُ وَحَسَكَةٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوبِكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالْرِيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِدِ الْخَيْلِ، وَالرَّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ). يعطى المؤمن من النور على قدر أعماله، أما المنافقون فلا نور لهم. يحاولون تجاوز الصراط فيتساقطون في النار².

¹ رواه أبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

² روى الحاكم في المستدرک: (فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ مِثْلَ الْجَبَلِ وَتُونِ ذَلِكَ، وَمِثْلَ النَّخْلَةِ وَتُونِ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ عَلَى إِنْهَامِ قَدَمِهِ). وَوَقَعَ فِي رَوَايَةِ مُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرٍ: (وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ نُورًا -إِلَى أَنْ قَالَ-: ثُمَّ يُطْفِئُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ)، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ ابْنِ مَرْزُوقٍ: (فَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ نُورًا، ثُمَّ يُوجَّهُونَ إِلَى الصِّرَاطِ فَمَا كَانَ مِنْ مُنَافِقٍ طُفِيَ نُورُهُ).



فلك أخي الحبيب أن تتخيل الصباح وقد وقع رجل أمامك يقول: "واشباباه!"، وأخرى تقول: "وافضيحتاه!"، وآخر يقول: "واشيبتهاه!". ثم تخيل نفسك وأنت تنتفض، قلبك مخلوع، تحاول تهدئة نفسك، لكن أنى لك هذا.

فأما إن كنت من الذين يصلون رياءً وسمعة، تخيل نفسك وأنت تصرخ وتقول: "رباه، ارجعون! رباه، ارجعون!" ثم يُحْبَس من تجاوز الصراط على قنطرة بين الجنة والنار. قال عليه السلام كما روى البخاري: (يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا).

فيا صاحب السجن، ليس هنا السجن، لا والذي بعث محمداً بالحق، السجن هناك في الآخرة. إن كان الرجل من أصحاب النار، كما قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا} وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) [سورة المائدة]. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [سورة التحريم]. أي كما أن نار الدنيا تزداد توقداً كلما وضع فيها الحطب، فإن نار الآخرة تزداد توقداً كلما وضع فيها البشر. تنادي وتصرخ، {هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ}، {عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}، {إِذَا رَأَوْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا}، أي تكاد تتقطع.

وينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها على أهلها. لها سبعون ألف زمام، يجر كل زمام سبعون ألف ملك. {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ (٢٦)} [سورة الفجر]. نار لا يكاد يرى لهما، شررها كالقصر، إذا وقع كأنه جمالة صفر. عذابها شديد، أليم، غليظ. هواؤها سموم، وظلها يحموم، وماؤها صديد. حلها حديد، وقعرها بعيد. أبوابها مطبقة، مغلقة، مؤصدة، بعضها فوق بعض. وإن الله تكفل بملئها جميعاً. {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن



شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) [سورة الملك]، أي بعداً لهم من رحمة الله.

{وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ}، أي مقيدين بالسلاسل، {دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣)} [سورة الفرقان]، أي دعوا على أنفسهم بالحسرة والهلاك. {دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا}، فيقال لهم: {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤)} [سورة الفرقان]. يوم تشيب فيه الولدان، وهم يسمعون قول الحق لآدم عليه السلام: (أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ) [متفق عليه].

{كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [سورة النساء: ٥٦]. أهونهم عذاباً لمن توضع أسفل قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه، يظن أنه أعظم أهل النار عذاباً، وإنه لأقلهم.

وجوههم باسرة، عابسة، {تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)} [سورة القيامة]، أي مصيبة، {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا} [سورة يونس: ٢٧]، {سَرَابِيلُهُمْ} أي لباسهم، {مَنْ قَطْرَانٍ} [سورة إبراهيم: ٥٠]، وهو النحاس المذاب الملتصق بالجسم. قال ﷺ كما روى مسلم: (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ). فبينما هم في العذاب والنكال، إذ بلغ فيهم الجوع مبلغه، فيطلبون الطعام، فتخرج لهم شجرة الزقوم من أصل الجحيم، غذيت من قيح وصيد أهل النار، طلعتها كأنه رؤوس الشياطين. لو قطرت منها قطرة في بحار الدنيا، لأفسدت على

^١ (وواحد إلى الجنة) زيادة عند البزار.



أهل الأرض معيشتهم، فكيف بمن تكون طعامه؟ يقدم لهم الضريع، وهو شوك يابس لا يسمن ولا يغني من جوع، فيأكلون منه عليهم يشبعون، فينشبون من كثرة شوكه في حلوقهم. قال تعالى: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)} [سورة المزمل: ١٣]. فيستغيثون ويطلبون الماء، {وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ} [سورة الكهف: ٢٩]، ماءٌ حار، أسود منتن غليظ، حارٌ اشتد عليه. {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)} [سورة النبأ]. فإذا أدناه من وجهه ليشرب، سقطت فروة رأسه فيه فذابت، ولكنه من شدة العطش وألم الغصة والحر، يسقى هذا الحميم، فإذا شرب منه تقطعت أمعاؤه حتى تخرج من دبره عيادًا بالله. فلا هو شبع، ولا هو ارتوى، {بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)} [سورة الكهف]. ثم يبدأ الخصام والعداوة في النار. قال تعالى يصف لنا حالهم: {وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)} [سورة غافر]. {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)} [سورة الأعراف]. ثم يحاولون فداء أنفسهم بالمال، [قال النبي ﷺ]: {يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًّا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ} [متفق عليه].^١ فإذا فشلت تلك المحاولة، حاولوا الفداء في النفس. قال تعالى: {يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ

^١ ورواه أحمد واللفظ له.

بَبْنِيهِ (١١) {سورة المعارج}، أي لو أن الله عز وجل يضع أبنائه في النار، يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، فقط؟ لا.. {وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢)}، فقط؟ لا...، {وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}. يود المجرم لو أن الله عز وجل يضع من في الأرض جميعًا من الإنس والجن، فيأتيه الرد القاسي {كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨)} {سورة المعارج}، سمعوا مناديا يقول لهم: {اصْلَوْهَا فاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)} {سورة الطور} أي: سواء أصبرتم على العذاب والنكال أم لم تصبروا لا محيد لكم ولا خلاص من هذه النار جزاء بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا. {فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ سَوَاءٌ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)} {سورة فصلت}. وحتى لو قدموا الأعذار فهي غير مقبولة، ف {هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)} {سورة المرسلات}.

فإذا سمعوا ذلك زاد بهم الهم وأيقنوا بالخلود فيقول بعضهم لبعض {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ (٢١)} {سورة إبراهيم}، أي ما لنا من مخرج من هذا العذاب.

عندها يصعد الشيطان مرتفعا في النار ويخطب بأهلها قال تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)} {سورة إبراهيم}.

هنا لم يبق أمام أهل النار من حيل وأعذار فيلجأون إلى خازن النار، يلجأون إلى مالك ينادونه ليشفع لهم عند ربهم {وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} {سورة الزخرف} أي اشفع لنا يا مالك عند ربنا ليقضي علينا، فلم نعد نطبق هذا العذاب ولا هذه الحياة. {لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ



وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) [سورة فاطر]، فيرد عليهم مالك: {إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)} [سورة الزخرف].

ويقول لهم رب العزة جل في علاه: {اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا (١٠٨)} [سورة المؤمنون].
ومما يزيدهم عذابا قول الله تعالى لهم: {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)} [سورة السجدة].

نتوقف أحبتي عند هذه المحطة ونكمل إن شاء الله في المرة القادمة عن هذه السلسلة في الحديث عن هوان الدنيا وخستها، لعل الله أن يهون عليك ما أنت فيه ويفرج همك ويكشف كربك. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



الدرس الرابع: وصف الدنيا وخستها ومدح الصمت

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيا صاحب السجن، حديثي اليوم إليك عن وصف الدنيا وخستها، وفي مدح الصمت واذم الكلام، وتنظيم الوقت. فأرعني سمعك، ولا تدع الهموم والأحزان تسيطر عليك، فحياتك في هذه الدنيا لا تساوي شيئاً في حياتك في الآخرة.

قال تعالى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) [سورة طه].

فيا صاحبي، لو أمضيت هذا اليوم من أوله إلى آخره في السجن، فإنه فلا بدّ بعده من خروج، لا بدّ بعده من خروج، إما إلى جنة أو إلى نار - عياداً بالله منها -.

يشبه لنا أحد السلف هذه الدنيا بتوأمين يعيشان في بطن أمهما حياة خاصة، ويتحدثان بلغة خاصة، فإذا نزل الأول، ولعل بينهما دقائق أو حتى لحظات، قال الثاني: "مات أخي"، فإذا نزل الثاني، عرف أن أخاه نزل للحياة الدنيا.

قال: وهذا عين ما يحصل معنا عندما ندفن أحداً، نظن أننا قد دفناه وانتهى الأمر، ولكنه قد بدأ بحياة لا موت بعدها.

فلو أنا إذا متنا تركنا، لكان الموت راحة كل حي، ولكننا إذا متنا، بُعثنا ونسأل بعدها عن كل شيء.



ألا فلتعلم أن الدنيا مهما عظمت فهي حقيرة، ومهما كبرت فهي صغيرة، فلا تلتفت لتلبس الشيطان عليك، فيشغلك عن الطاعة والذكر والعبادة، ويشغلك عن تلاوة القرآن ومناجاة رب الأرباب، بالتذمر والتأفف، فتخسر الدنيا وتندم في الآخرة.

فكم تعذرت عن قلة قراءتك القرآن الكريم بالزوجة والأولاد، وكم فاتتك أذكار الصباح والمساء والصلاة بحجة العمل وضيق الوقت، وكم فاتتك قيام الليل وصيام النهار بحجج واهية وأسباب كاذبة؟

فها قد بان العور!

فإن في القلب غير محبة الله وذكره، فقد هيا الله لك مكاناً نظيفاً لعبادته، وسخر لك من يقوم بخدمتك، وتكفل لك برزقك، وأبعد عنك ملاهي الحياة.

أفلا يكفيك هذا؟

فلا تضيع وقتك بالتذمر والتضجر، ويستدرجنك الشيطان بخطواته، ألا فلتراجع نفسك قبل فوات الأوان!

فتقول يوم لا ينفع الندم: {رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ}. فيقال لك: {كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)} [سورة المؤمنون].

وتقول إذ يجيء الموت: {رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)}. فيأتي الرد: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)} [سورة المنافقون].

قال تعالى: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)} [سورة الزمر].

فكن ثابت الجأش، شديد العزيمة، متوكلاً على الله، غير شاكٍ في رحمته.



ويا صاحِبَ السجن، أمسك عليك لسانك، فلا تتحدث إلا بخير، واجتنب القيل والقال وكثرة السؤال.

وإياك وإياك والأكلة التي تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أقصد الغيبة، فإن صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يغفر له صاحبه.

فكم أهلك هذا اللسان من أقوام، وكم أعزّ من أقوام؟

ورب كلمة من سخط الله يتكلم بها الإنسان لا يلقي لها بالاً، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه، وكم من كلمة أهوت بصاحبها في جهنم أبعد من المشرق.

فأمسك عليك لسانك، فإن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان: الفم والفرج! [قال النبي ﷺ: (وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - وفي رواية: عَلَى وُجُوهِهِمْ) - فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟] ^١.

ولا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه. وإن أعضاء ابن آدم إذا أصبح تكفّره، تقول له: "اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اغْوَجْتَ اغْوَجْنَا" ^٢.

ألا وإن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، والعاشرة في عزلة الناس.

ومن كثر كلامه، كثر خطؤه، وقلت هيبتة، وذهبت مروءته، وقل الوقار في وجهه.

^١ روى هذا اللفظ، الطبراني في الكبير، وابن ماجه.

^٢ رواه أحمد، والطبراني، وابن أبي شيبه. قال الحافظ العراقي: أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

^٣ قال الحافظ العراقي: أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً، ورواه الترمذي موقوفاً على عمار بن زيد وقال هذا أصح.



وفي الحديث: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)^١، (وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)^٢. و"من لزم ما يعنيه، أو شك أن يترك ما لا يعنيه"، و"من كثير مزاحه، قلت هيئته، واستخف به الناس، ومن أكثر من شيء، عُرف به"^٣.

ألا وإن الله أمركم فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)}

[سورة الحجرات].

ألا وإن للغيبة ريحًا منتنة، ولولا كثرة المغتابين، لشممنا تلك الريح، لكن أنوفنا قد اعتادت تلك الريح، فلم تعد تُنكرها.

فالله الله بالعزلة، فإن كنت لا بدّ مخالطًا، فقل خيرًا أو اصمت، وإياك والغضب، فإن غضبت فأمسك عليك لسانك، فإن من لم يمسك لسانه يندم. ولنعد إلى أصل البحث ومنشأه، وهو أن تفرغ قلبك من محبة غير الله، فتشتغل بحبه وعبادته، وتذلل له وتخضع.

وتعلم أن ما أصابك ما كان ليخطئك، وأن ما أخطأك ما كان ليصيبك، وتعلم أن الفرج مع الكرب، وأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يُسرًا.

ولتعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفعت الأقلام وجفّت الصحف.

^١ رواه البخاري.

^٢ رواه الترمذي وحسنه.

^٣ قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه.



فخذ بالأسباب كأنها كل شيء، ثم توكل على رب هذه الأسباب وكأن هذه الأسباب لا شيء.

كن من السبعين ألفاً الذين أخبر المصطفى ﷺ عنهم -كما في الصحيحين- الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فكان من صفاتهم أنهم لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون. وهذه هي أعلى درجات التوكل التي علمنا إياها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لما ألقاه قومه في النار، فيأتيه جبريل عليه السلام فيقول له: "ألك عندي حاجة؟" فيقول عليه السلام: (أما منك فلا)، ويردد: (حسبي الله ونعم الوكيل).

فلما توكل على الله حق توكله، لم تضره نارهم التي أججوها وأشعلوها، لأن رب النار أمرها فقال لها: {يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} [سورة إبراهيم].

وهنا يتحقق معنى الإيمان بالقدر خيره وشره، فاعلم أن الله كتب عليك السجن قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

فمن رضي واحتسب وصبر فله الرضا، ومن تضرع وسخط فله السخط.

اصبر واحتسب، وهبي نفسك لما هي فيه، فإن النفس لا بد لها من ترويض حتى تلين.

وسأضرب لك مثلاً اجعله نصب عينيك يسهل عليك ترويضها: رجل مريض بمرض السكر، فهو يشرب الشاي بدون سكر.

فإذا أقنع نفسه بأن الشاي بدون السكر أطيب وألذ منه بالسكر، وأن هذا السكر فيه الأوجاع والأمراض، فإنه سيستلذ بالشاي بدون هذا السكر كما استلذ المعافي بحلاوة الشاي به.

^١ رواه الطبري في تفسيره ن طريق المعتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه مبهماً، وأبو نعيم في الحلية عن مقاتل وسعيد مرسلًا.



فإذا تذر وهو يشرب هذا الشاي بدون السكر، فسینقلب الشاي مرارة، وسیتنغص عليه معیشته وهو یشربه. فإن أضاف له بعضًا من السكر لیدوق حلاوته، فسینقلب ذلك عليه مرضًا بقدر ما وضع من السكر، وبقدر ما عنده من المناعة، وسیزید علیه مرضه وربما أرداه وتسبب فی هلاكه وموته.

ولقد رأیت هذه الأصناف الأربعة كلها فی السجن، فاحرص على أن تكون من الصنف الأول الذي یرى أن هذا الشاي بدون السكر أطیب منه وألذ، وأن هذا السكر به الأوجاع والأمراض.

كن راضيًا بقضاء الله وقدره، ثابتًا لا تهزك رياح الابتلاءات، واثقًا بنصر الله لك. فأقنع نفسك فی سجنها أنها فی معتكفها، فی خلوة مع ربها، هجرت الدنيا وملاقاة الناس، وأقبلت على الله، وطلق الدنيا ثلاثًا، واعمل للآخرة.

واسمع لقول الله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)} [سورة الحديد].

وما قاله النبي ﷺ فی حقها فی الحديث الذي رواه ابن ماجه والحاكم والترمذي والطبراني وابن حبان وغيرهم: (مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)^١.

فلو أن الدنيا ذهب يفنى، والآخرة خزف يبقى، لاختار العاقل خزفًا يبقى على ذهب يفنى.

فكيف وقد اخترنا خزفًا يفنى على ذهب يبقى؟

فهذا الأول هجر الدنيا وطلقها، وفرح بمعتكفه فأقبل على ربه، وانشغل بذكره، وتفرغ لحفظ كتابه، وتفكر بنعمه وآياته، وتفقه في دينه.

وفي الحديث: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)^٢.

^١ قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

^٢ رواه البخاري.



أما الثاني، فأخذ يتذمر طوال وقته، مهموم البال، مشغول الفكر، لا يفكر إلا بالخروج، فيُصلي وباله عند الزوجة والأولاد والتجارة والسكن والأموال.

فلا يزيده ذلك إلا همًّا إلى همِّه، وحزنًا إلى حزنه، فانقلبت تلك الفكرة إلى ظلمة في قلبه، تزداد وتتوقد كلما أعمق التفكير بأمور الدنيا ومشاعلها.

فلا تزال تلك العوالق تطغى على قلبه، حتى تطفئ نور العبادة.

فإن لم يوقفها عند حدها ودفع وساوس الشيطان عن نفسه، وإلا سقط في الشك في القضاء والقدر، وهذا الثالث.

فإن لم يتدارك نفسه، وقع في مستنقع الردة - عيادًا بالله - وهذا هو الرابع.

فالله الله، اجعل هذا المثال نصب عينيك، تهون عليك كثير من المصائب، وتزول عندك كثير من الهموم بإذن الله.

فسلم أمرك لله وأقبل عليه. فمن تقرب من الله شبرًا تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي جاءه هرولة. وقال [رسول الله ﷺ]: {إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ}.

إذن الفرائض هي أول الأسباب لكي يحبك الله.

ثم قال: {وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ}، صيام النوافل، صيام النهار، الصدقة، قيام الليل، إصلاح ذات البين.

والنتيجة: {فَإِذَا أَحَبَّهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أُعْطِيْتُهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ}¹. وذلك قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)} [سورة مريم].

¹ رواه البخاري.



فاحرص على الصلاة في وقتها، وصُم شهر الصيام، ولا تُضيّع شيئاً من الفرائض، ثم اشغل نفسك بالنوافل، واملاً وقتك بها لعل الله يحبك.

واعلم يا أخي، واعلم يا صاحب السجن، أن هذا السجن أيام ستذهب، ألا وإنك مسؤول عما فعلت فيها.

ألا فلتجعل لنفسك برنامجاً ومنهجاً تسير عليه، فلا تكون عشوائياً، فتكون لقمة سائغة للشيطان.

فبعد صلاة الفجر باشر بأذكار الصلاة، فإذا أنهيتها ابدأ بأذكار الصباح. فإذا أنهيتها، عليك بتلاوة القرآن. واعلم أن أفضل وقت لصلاة الأوابين حين ترمض الفصال، فإذا اشتدت حر الشمس فإن ذلك أفضل وقت لصلاة الضحى، ولقد كان النبي ﷺ يحرص عليها معظم أحيانه.

ثم هيئ نفسك لصلاة الظهر، فإذا قضيت الصلاة فبأذكارها بادر، ولا يلهينك الشيطان فيما لا يعينك من الكلام.

ثم خذ قسطاً من الراحة، وقل: (فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ)¹.

فأيّما وقت استيقظت، فابدأ بوردك من القرآن، وحبّذا لو جعلت لنفسك نصيباً من القرآن تقرأه بعد كل صلاة.

فلو قرأت بعد كل صلاة عشر صفحات، فإنك ستقرأ القرآن في كل اثني عشر يوماً مرة. وهذا يقتضي أنك ستقرأ القرآن في السنة ثلاثين مرة.

ولقد قال المصطفى ﷺ: (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: {الْم} حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ)².

وعند مسلم قال النبي ﷺ: (اقْرَأُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ).

¹ رواه أبو نعيم في الطب من طريق أنس رضي الله عنه (سنده ضعيف، كثير بن مروان كذاب).

² رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح غريب



وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وبكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون."

وحبذا لو كان لك نصيب من حفظ كتاب الله، فكم تمنيت ذلك قبل السجن بلسانك، وتعذرت بقله الوقت وأشغالك؟ فما قد أعطيت ما فقدت.

واسمع لقول المصطفى ﷺ: (يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَزَلَّتْكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُوهَا)¹.

فإذا جاء العصر، وقلت أذكار الصلاة، وقرأت وردك من القرآن، اشغل نفسك بقراءة كتاب نافع في الفقه اليومي الذي لا بد منه في العبادات.

وابدأ بالطهارة والصلاة، ثم الصيام. فإذا كان قبل المغرب بقليل، فابدأ بأذكار المساء.

فإن كان ذلك يوم الجمعة، فاحرص أن تستغل الساعة التي قبل المغرب بالدعاء، فإنها ساعة إجابة.

فإذا كنت صائماً، فإن لك دعوة عند فطرك، فلا تضيعها.

فإذا قضيت المغرب وقلت أذكراها، حبذا لو كانت وجبة العشاء في هذا الوقت.

ثم ابدأ بوردك من القرآن إلى صلاة العشاء. فإذا قضيت ذلك عليك بأذكار العشاء، ثم بوردك من القرآن، ثم اذهب إلى فراشك، فانفضه ثلاثاً، واقرأ أذكار النوم، واضطجع على شقك الأيمن، واستقبل القبلة.

ونم إلى ثلث الليل الأخير، حيث يتنزل الرب جل في علاه إلى السماء الدنيا، ويقول: {هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأَعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ؟}².

¹ رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

² رواه أحمد، قال الأرنبوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.



فأقبل على الله، وتضرع إليه بالدعاء، واستغفره على ما فرطت في يومك السابق، واعزم على أن يكون يومك اللاحق أفضل من سابقه.

فصلٍ من الليل ما استطعت، وجدّ واجتهد بالدعاء وقراءة القرآن الكريم.

فإذا عازمت على الصيام أو كان شهره، فتسحّر، فإن في السحور بركة. وتسحّر ولو بشربة ماء.

ثم تجهز إلى صلاة الفجر. وهكذا كن في سائر أيامك، تخشى أن يضيع من وقتك شيء لا تذكر الله فيه.

واعلم أن الإنسان يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

نتوقف عند هذا القدر، ونكمل إن شاء الله في المرة القادمة عن بعض صفات عباد الرحمن كما وصفهم الله جل وعلا في سورة الفرقان، وعن بعض الأسباب المعينة على دفع الهم والحزن.

هذا، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد. وجزاكم الله خيرًا.



الدرس الخامس: صفات عباد الرحمن

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيا صاحب السجن، هذه بعض صفات عباد الرحمن التي وصف الله بها عباده، فاحرص على أن تكون منهم ومعهم.

أما الأولى: فالتواضع، قال جل وعلا: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}.

والثانية: الحلم والإعراض عن الجاهلين، قال تعالى: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)}.

والثالثة: قيام الليل، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)}.

والرابعة: الخوف من عذاب الله، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)}.

والخامسة: التوسط في الإنفاق، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)}.

والسادسة: التوحيد، {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}.

والسابعة: تعظيم حرمة دم المسلم، قال تعالى: {وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}.

والثامنة: حفظ الفرج عن الحرام، قال تعالى: {وَلَا يَزْنُونَ}.

والتاسعة: عدم شهادة الزور، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ}.

والعاشرة: الإعراض عن اللغو، قال تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)}.



والحادية عشرة: قبول الموعدة والنصيحة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا}.

والثانية عشرة: الدعاء وصلوة الرحم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)}.

فلما كانت هذه صفاتهم كان جزاؤهم من الله كما قال: {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)} [سورة الفرقان].

فهؤلاء المتصفون بهذه الصفات يُجزَوْنَ يوم القيامة الجنة بصبرهم على القيام بتلك الخصال، ويلقَّون فيها التحية والإكرام والتوقير والاحترام، ويخلدون فيها بلا موت ولا سفر ولا تحوّل.

فاحرص يا صاحبي على أن تكون منهم، ولن تكون منهم حتى تحذو حذوهم، ولن تحذو حذوهم حتى يكون عندك الصبر على ما أنت فيه.

فيا صاحب السجن، اعلم أن هذا السجن مدرسة للصبر، والصبر أجره عظيم وثوابه جزيل. به تنال الإمامة في الدين والفلاح في الدارين، ومعه يكون النصر العظيم، وبه السعادة والضياء، وإنه كله خير.

ربط الله الفلاح به فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)} [سورة آل عمران].

ونجى صاحبه من الخسران فقال: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} [سورة العصر].

ورتب عليه طريق الأجر والمغفرة فقال: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)} [سورة هود].



وجعل الله معيته مع الصابرين فقال: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)} [سورة البقرة].

وعلق محبته بالصبر فقال: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)} [سورة آل عمران].

وأثنى على عبده أيوب عليه السلام لما ابتلاه فصبر فقال: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)} [سورة ص: ٣٠].

وعوّض الله من ابتلاه بحبيبتيه -أي بعينيّه- فصبر، الجنة.

وأمر ملائكته أن يبنوا لمن حمده واسترجع عند البلاء بيتًا في الجنة، وأسماه "بيت الحمد".

وجعل الصبر دليلاً على المحبة ودخول الجنة فقال: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)} [سورة آل عمران].

وفي الحديث المتفق عليه، قال النبي ﷺ: {مَا يُصِيبُ الْمَرْءَ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، -أي تعب- وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا غَمٍّ، وَلَا أَذًى، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ}.

فيا صاحب السجن، لا تنظر إلى الكأس فارغ نصفها، فإن النصف الآخر مملوء.

وهذا شيخ الإسلام يؤصّل لك قاعدة ذهبية تسير بها في حياتك، فيقول: "جنّتي في صدري، إن سجنوني فسجني خلوة، وإن نفوني فنفي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة".

فيسجن ويثبت، فيبارك الله به وبعلمه، فلا تزال تدرس كتبه إلى هذا اليوم، وينتفع بها، وتعد مرجعاً للعلماء وطلبة العلم.

ويسير على طريقه تلميذه ابن القيم الذي سجن معه أيضاً، واستفاد من علمه، فتعلّم وعمل وعلم.



وهذا السرخسي رحمه الله يُسجن في بئر نحو عشر سنين، فيأتيه طلابه يدرسهم وهو في البئر، ويُخرج للأمة عشرين مجلدًا في الفقه.

وهذا ابن حنبل أحمد يُسجن ويُعذَّب في سجنه حتى يقع صريعًا، فيصبر على الأذى، فيصير إمام أهل السنة والجماعة، يرجع الناس ويستندون إلى أقواله في كثير من المسائل، ولو أردنا البحث والتعداد في سير أولئك الأعلام الذين يُقتدى بصبرهم في ظلمات السجون، لطال بنا المقال ولزادت علينا الكلفة والمشقة.

ولكن نكتفي بذكر إمامهم نبي رب العالمين يوسف عليه السلام، الذي لبث في السجن بضع سنين، بعد أن اعتاد على حياة الملوك، بذنب لم يقترفه.

والواجب أن يُكافأ عليه لا أن يُسجن بسببه.

فما يؤس من روح الله وما قنط من رحمته، ولا ينبغي له، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

فلا يزال في سجنه ذاكرًا لربه، داعيًا للتوحيد.

فيسأله صاحباؤه في السجن عن تأويل رؤياهما، فيستغل ذلك الموقف للبدء بدعوتهما إلى التوحيد، ويؤخر الجواب عن سؤالهما الرؤيا ليجذب أسماعهما.

فيقول لهما: {يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَِا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)} [سورة يوسف].

فلما صبر، أخرجته الله من السجن وأصبح عزيز مصر، ورد إليه أبويه، وجمعه مع إخوته من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبينهم.



فقد تمر بك ساعات من الضيق، وتجتمع عليك نوائب الدهر من كل حذب وصوب، لكن اعلم أن الله لن يكلف نفسك ما لا تطيق، فهو من قال: {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [سورة الأنعام: ١٥٢].

فكلّ يبتليه الله بقدر طاقته وإيمانه، وأشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلى المرء على قدر دينه.

فمنهم من يبتليه الله بالسجن، ومنهم بالأمراض والأسقام، ومنهم بفقد الأولاد، ومنهم بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، ليشهد صدقهم في محبته وإيمانهم بالقدر خيره وشره.

فإذا اشتد الكرب والبلاء، اعلم أنه قد جاء الفرج.

وإني لأعجب ممن يرجو الفرج دون أن يمر بالضيق! فكيف يأتي السبب وما حصل المسبب؟ وممّ يكون الفرج إن لم يكن هناك كرب؟ وكيف يكون اليسر وما حصل العسر؟ فأبشر، فلن يغلب عسر يسرين.

وكلما اشتد ظلمة الليل، لا بدّ بعدها من فجر صادق. وكلما اشتد الضيق، اعلم أن الفرج قد اقترب.

قال تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)} [سورة يوسف]. فاصبر، إنك على الحق.

وأنت أولى ممن يصبر على الباطل، فيموت وهو مُصرٌّ على كفره -عياذًا بالله- فهو يقاتل في سبيل الصليب ونصرة الطاغوت وحب المال والشهرة والمنصب، فيصبر ويتحمل الأذى في سبيل ذلك، ويُعذب حتى يموت في سبيل الطاغوت.

أفلا تصبر أنت، يا من خرجت في سبيل الله ونصرة دينه؟ عجباً لحالك، لو نظرت لها لبقيت حائرة حِيناً من الدهر.



وهنا يا صاحب السجن، أود أن أذكر لك بعضاً من الأسباب في دفع الهم والحزن:

فيا صاحب السجن، لو نظرت وتأملت إلى ما يسعى إليه العقلاء، لوجدت أن سعيهم كله في مطلوب واحد، بحثوا عن السعادة، وبذلوا جهدهم في دفع الهم والغم عن أنفسهم.

ولكن تعددت طرقهم واختلفت في تحصيلها:

فهذا بحث عنها في الطعام والشراب، وذاك بحث عن السعادة في التجارة والأموال، والآخر بحث عنها بالزواج والأولاد، وآخر بحث عنها باللهو والألحان؛ فتاهوا وضلّوا.

ألا وإن السعادة لا تكون باللذة والشهوة المؤقتة، ألا وإنها لا تكون بما حرم الله.

إنما الطريق الموصل إليها هو التزام شرع الله.

فتأمل في قوله تعالى في أول سورة "طه" إذ يقول: {طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)}.

وفي آخر السورة قال: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [سورة طه].

فلاحظ كيف بين الله أن من علّق قلبه بالقرآن أذهب الله همه وجلا حزنه، ومن أقبل على ذكر ربه صارت معيشته طيبة زكية.

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)} [سورة الرعد].

فتكون محبة الله أحب إليه من كل شيء.

فمن وجد الله وجد كل شيء، ومن فقد الله فقد كل شيء.



قال الحسن: "ما طابت الدنيا إلا بذكر الله، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته".

فلتكن مرضاة الله هي هدفك ومطلوبك. فلو أفنيت عمرك كله في العبادة لكنت مقصرًا فيها.

وفي الحديث الصحيح الذي يرويه أبو ذر، قال: قرأ النبي ﷺ: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)} [سورة الإنسان]، حتى ختمها، ثم قال: (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتْ -أي ثقلت- السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنُطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَهَّتُهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ -يعني إلى الطرقات- تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ -بالدعاء-).^١

فإذا كان يوم القيامة، تقول الملائكة: "سبحانك، ما عبدناك حق عبادتك!" فإذا كان تلك حالهم، فما هي حاله وحالك؟ وما وصلنا إليه من العبادة إلى ما وصلوا؟

قال أحد السلف: بحثت عن أقوى جند من جنود الله فبحثت في قوله جل وعلا: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} [سورة الحديد: ٢٥]، فقلت: الحديد هو أقوى جندي من جنود الله. قال: فنظرت إلى النار، فإذا النار تصهر الحديد. فقلت: النار أقوى جندي من جنود الله. قال: فنظرت فإذا الماء يطفئ النار، فقلت: الماء أقوى جندي من جنود الله. قال: فنظرت إلى الماء فإذا السحاب يحمله، فقلت: السحاب أقوى جندي من جنود الله. قال: فنظرت فإذا الرياح تسوق السحاب، فقلت: الرياح أقوى جندي من جنود الله. قال: فنظرت إلى الرياح فرأيتهما لا تحرك الجبال، فقلت: الجبال أقوى جندي من جنود الله. قال: فنظرت فإذا الإنسان يطأ الجبال بقدميه، فقلت: الإنسان أقوى جندي من جنود الله. قال: فنظرت فإذا الإنسان يغلبه النوم، فقلت: النوم أقوى جندي من جنود الله. قال:

^١ رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال: حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.



فنظرت إلى النوم فإذا الهم يطرده، فقلت: الهم أقوى جندي من جنود الله. قال: فنظرت إلى الهم فإذا ذكر الله يزيله، فقلت: إن الذكر أقوى جندي من جنود الله.

وفي الحديث الذي يرويه أحمد، قال النبي ﷺ: (مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدُلٌ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا).

ف قيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ قال: (بلى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا)¹.

وأفضل الذكر: "لا إله إلا الله".

وفي الحديث: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)²، {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [سورة الرعد]، ألا فلا يفتر لسانك عن ذكر الله لحظة.

وفي الحديث الذي رواه أحمد والطبراني وغيرهما، قال رسول الله ﷺ: (لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَفْرِيءُ أَمَّتِكَ مِنِّي السَّلَامُ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)³.

أَوْ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّهَا الْقِيَعَانُ *** فَاغْرِسْ مَا تَشَاءُ بِذَا الزَّمَانِ الْفَانِي
وَغِرَاسُهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ *** وَالتَّحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ لِلرَّحْمَنِ
تَبًّا لِتَارِكِ غَرَسِهِ مَاذَا الَّذِي *** قَدْ فَاتَهُ فِي مَدَّةِ الْإِمْكَانِ
يَا مَنْ يَقْرُ بِذَا وَلَا يَسْعَى لَهُ *** بِاللَّهِ قُلْ لِي كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ
أَرَأَيْتَ لَوْ عَطَلْتَ أَرْضَكَ مِنْ *** غِرَاسِ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ الْبُسْتَانِ

¹ صححه ابن حبان والحاكم وابن القيم وغيرهم وحسنه ابن حجر في اللسان.

² رواه البخاري ومسلم.

³ قال الترمذي: حديث حسن غريب.



فترى المجاهد لا يفكر بما يفكر به كثير من الناس الذين انشغلوا عن ذروة سنام الإسلام وما جاهدوا في سبيل الله.

فهذا المجاهد لم ينشغل في طلب الدنيا فجاءته راغمة، ولم ينشغل بما تكفل الله به وأقسم على أنه سيصله، -أقصد الرزق-، فجاءه ما قسم الله له من الرزق.

فصار همّه همًّا واحدًا، شغله الله به عن باقي الهموم، ألا وهو همّ الآخرة.

صار همّه كيف يلقي الله وهو راضٍ عنه، فترفع عن سفاسف الدنيا ودناياها ورذائلها.

ولقد رأينا في أرض الجهاد من الكرامات ما الله به عليم: فهذا يبتسم عند موته!

وأعجب تلك القصص والأخبار ما رواه أحد الإخوة الثقات عن أخٍ من ولاية حلب واسمه أبو معاوية، حيث أصيب أبا معاوية بطلقة في رقبتة.

وهم في طريق نقله إلى المستشفى كان يتألم ألماً شديداً. قال أبو الحسن -راوي القصة:-
"بعد ربع ساعة من الألم، أخذ أبو معاوية يبتسم."

قال: فسألته عن سر تلك الابتسامة، فأجاب: "أنه يرى بساتين وخضرة وطرقاً وبيوتاً ليست كالتى في الدنيا."

وبدأ يتحدث له عنها، ثم زادت ابتسامته وأخذ يقول: "الآن أرى نساءً، لكن ليست كنساء الدنيا! الله أعلم، ربما تكون الحور، الله أعلم، ربما تكون الحور، يا أبا الحسن."

وأخذ يذكر أموراً لا أظن إلا أنه كان يرى الجنة رأي العين.

ثم ذكر أسماء إخوة قد قُتلوا، نحسبهم من الشهداء، منهم أبو أنس، حيث قال:
"أبلغكم من أبي أنس السلام."

قال أبو الحسن: "فأردت أن أمسح جبين أبي معاوية من شدة التعرّق، فقال: لا، لا، تمسح يا أبا الحسن، فإن النبي ﷺ قبّلني على جبي، ولا أريد أن تذهب قبلته عني."



قال أبو الحسن: "بعد ذلك رأيت أن أبا معاوية قد عبس. قال فخفت، لعلّه يرى النار."

قال: "ثم ابتسم أكثر من قبل، وصاح: فُزْتُ وربّ الكعبة! فُزْتُ وربّ الكعبة!"

فقلت له: "ماذا ترى؟"

قال: "إني أرى نورًا عظيمًا."

فسألته عن ذلك النور، فقال: "هو الله، الله!"

وفاضت روحه إلى الله."

قاله، الله بالجهاد في سبيل الله، عباد الله.

ولنكن من أصحاب قوله تعالى: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)} [سورة الأحزاب].

هذه بعض الأسباب التي قد تساعدك في دفع الهم والغم والحزن.

نتوقف عند هذا القدر، ونكمل إن شاء الله في الدرس القادم عن التفكير والتدبر في نعم الله وآياته.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على محمد. وجزاكم الله خيرًا.



الدرس السادس: التفكير والتدبر في نعم الله وآياته

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، ثم أما بعد:

آية عظيمة من كتاب الله، تدعو إلى التفكير في آياته ونعمه وآلائه. يقول الله فيها: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقلنا عذاب النار}.

جاء في سبب نزول هذه الآية أن عائشة رضي الله عنها قالت: قام النبي ﷺ ليلة فتطهر ثم قام يصلي. قالت: فلم يزل يبكي حتى بل الأرض.

فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر من ذنبك؟، فقال ﷺ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)})^١.

فالموفق عباد الله، من وفقه الله عز وجل، فصرف فكره وهمه في معرفة ربه سبحانه، وذكره وشكره وعبادته والاستعداد للقاءه في الدار الآخرة.

فأصل الخير والشر من قبل التفكير، وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد.

ورأس هذا القسم التفكير في آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه، وطرق العلم بأسمائه وصفاته من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما والاهما.

^١ سورة آل عمران.

^٢ رواه ابن حبان. قال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.



فإذا فكّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخسّتها وفنائها، أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا.

وكلما فكّر في قصر الأمل وضيق الوقت، أورثه ذلك الجِدَّ والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت.

وهذه الأفكار تُعلي همّته، وتُحييها بعد موتها، وتجعله في وادٍ، والناس في وادٍ.

ومن أجمل من كتّب في هذا الباب طبيب القلوب ابن قيم الجوزية في كتابه "مفتاح دار السعادة"، حيث قال: "وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه، أَوْقَعَكَ على العلم به سبحانه وتعالى، وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته، وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته، وإحسانه، وبرّه، ولطفه، وعدله، ورضاه، وغضبه، وثوابه، وعقابه، ومن ذلك خلق الإنسان، وقد ندب سبحانه إلى التفكير فيه والنظر إليه في غير موضع من كتابه، فقال: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥)} [سورة الطارق]، وفي الذاريات قال: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)}، وفي القيامة قال: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)}.

إلى أن قال ابن القيم رحمه الله:

فانظر إلى النطفة في عين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين، لو مرّ بها ساعة من الزمان لفسدت وأنتنت.

كيف استخرجها ربُّ الأرباب من بين الصلب والترائب، فجمع بين ماء الرجل وماء المرأة، وساقهما من بين العروق والأعضاء.

ثم جعل لها قرارًا مكينًا، لا يصل إليها الهواء فيفسدها، ولا الحرّ فيتسلط عليها، ولا البرد فيجمدها.



قال: ثم انقلبت بعد ذلك من نطفة بيضاء إلى علقة حمراء، ثم مضغة دم، ثم عظامًا مجردة لا كسوة عليها.

عظامًا قدرها الله عز وجل، ونظَّمها، وقسَّمها بتقادير مختلفة، وأشكالٍ متباينة، كلُّ لما خلقت له، منها الصغير والكبير، والقصير والطويل، والمنحني والمستدير، منها الدقيق والعريض والمُصمت والمُجوَّف.

فركَّب بعضها على بعض، وجعل بينها المفاصل، وشدَّها بالأوتار والأربطة.

ثم كَسَا تلك العظام لحمًا، فأنشأها خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

قال: "ولو اجتمع الأولون والآخرون، الإنس والجن، على أن يخلقوا لها سمعًا أو بصرًا أو عظمًا أو عِرْقًا أو حتى شعرة لما استطاعوا.

فسبحان من لا يقدرُ الخلق قدره، ومن هو فوق العرش ربُّ مُوحد."

ثم تكَلَّم رحمه الله عن حُسْن شكل العينين، والحكمة من خلق الأجفان والأهداب، وعن الأذن وتجويفها، والأنف وهيئته، والفم وموضعه.

وكيف أن الله زَيَّن رأس الإنسان بالشعر، والوجه ببعضه بالحاجبين والأجفان والأهداب، واللحية والشارب والعنققة.

ثم قال: "ومن حكمته جلَّ في علاه أن جعل ماء الأذن مُرًّا، وماء العين مالِحًا، وماء الفم عذْبًا، وليذوق الإنسان به طعمَ الأشياء.

ثم قال رحمه الله: وانظر إلى اليدين اللتين هما آلة العبد، وسلاحه، ورأس ماله، ومعاشه، وبهما يستطيع حملَ الأشياء. كيف أن الله طَوَّلَهما ليصلا إلى بدنه كُلِّه."

قال: "وعرَّض الكفَّين ليتمكَّن من القبض والبسط. فتبارك من لو شاء بسطَهما فكانت كالصحيفة، أو ضمَّهما فكانت آلة للضرب، أو جعلَها بين الضمِّ والبسط فكانت كالمغرفة.



لكن قَدَّرَها على ما هي عليه ليتمكَّن العبدُ من القيام بمصالحه.

قال: وتأمَّل كيف رَكَّبَ الله الأصابع: أربعةً في جهة، وواحدًا في جهة، فجاءت على أحسن تقويم.

ولو اجتمع الأولون والآخرون، الإنسُ والجن، على أن يستنبطوا وضْعًا آخر لهذه الخمسة أصابع، لما استطاعوا.

فسبحان من لا يقدرُ الخلقُ قدره، ومن هو فوق العرش ربُّ موحد.

قال: ورَكَّبَ الأظافر على أطراف تلك الأصابع زينةً وعمادًا ووقايةً، وليحكَّ الإنسانُ بها بدنه.

فلو أنَّ الإنسانَ عُدِمَ -يعني فقد هذا الظفر- ثمَّ ظهرت به حَكَّةٌ، لاشتدَّت حاجتُه إليه.

قال: "وهَدَى الله اليد في الظلام إلى موضع الحَكِّ من غير طلبٍ أو استعانة، -يعني إذا ظهرت بك حَكَّةٌ ليس هناك حاجةٌ إلى أن تشعلَ الأنوار وتنظرَ موضع الحَكِّ-.

قال: "وهَدَى الله اليد في الظلام إلى موضع الحَكِّ من غير طلبٍ أو استعانة.

كلُّ ذلك صُنِعَ الرَّبِّ الحكيم، وتقديرُ العزيز العليم، في قطرةٍ من ماءٍ مهين؛ فويلٌ للمكذِّبين، وبعْدًا للجاحدين.

ثمَّ تكَلَّمَ رحمه الله في عدة صفحات عن السماوات، وعلوِّها، وسِعَتها، وعظم خلقها، وحُسن بنائها، وعجائب كواكبها، وشمسها، وقمرها، وتفاوت مشارقها ومغاربها.

وعن الأرض كيف أنَّ الله وسَّع أكنافها، ودحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها. وكيف أنَّه بالجبال أرساها، ووسَّع جوانبها، وطحاها، وضَمَّ في باطنها الناس أحياءً وأمواتًا.

ثمَّ قال: ارجع إلى النطفة أوَّلًا، وإلى ما صارت إليه ثانيًا.



فمن كانت قدرته في قطرة من ماء مهين، فكيف بالسموات والأرض؟

والله يقول: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)} [سورة النازعات].

ثم تكلم رحمه الله عن السحاب، وكيف أنه مع لينه ورخاوته يحمل الماء الثقيل إلى أن يأذن الله فينزله قطرات بقدرٍ مخصوص.

لا تختلط قطرةً بأخرى، ولا تدرك قطرةً صاحبته، بل تنزل كل قطرة في مسارٍ رُسم لها، لا تعدل عنه.

فتأمل كيف يسوق الله الماء إلى الأنعام والعباد والطير والذر والنمل.

فيسوقه إلى الحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني، فيصل لذلك المخلوق على شدة من الحاجة والعطش، في الوقت الذي يراه الله مناسباً.

ثم تكلم رحمه الله عن الفصول وكيف أن لكل فصلٍ من الفصول نوعاً من الثمار لا يصلح إلا في ذلك الفصل.

قال: ومن حكمته جلّ في علاه أن جعل تلك الثمار متتابعةً متلاحقةً، فلم يخلقها دفعةً واحدة، فيصعب علينا تدبيرها.

قال: وتأمل في هذه الثمار: منها الأبيض، والأصفر، الأحمر، والأخضر، منها المر، والحامض، الحلو، والمالح، كلها تُسقى بماءٍ واحد، ونُفِضَ بعضها على بعضٍ في الأكل.

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ *** أَمْ كَيْفَ يَجْعَدُهُ الْجَاوِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ *** وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ



ثمَّ تكَلَّمَ رحمه الله عن أنواعٍ من الثمار وفوائدها وأسرارها كاليقطين، والنخل، والرمّان، وعن أحوال العقاقير والأدوية التي يُخرجها الله منها.

ثمَّ تكَلَّمَ رحمه الله عن الحيوانات وحكمته جل وعلا في خلقها، وكيف أنه سخَّرَها للإنسان.

وكيف أنه جعل بعضها يمشي على بطنه، ومنها ما يمشي على رجلين، ومنها ما يمشي على أربع.

وكيف أنه كسا بعضها شعرًا، وبعضها وبرًا، وتلك صوفًا، وأخرى بالريش.

ثمَّ قال رحمه الله: وتكلَّم عن بعض تلك الحيوانات كالفيل والزرافة والنمل وما أُعطي من الفطنة والحيلة.

ثمَّ تكَلَّمَ عن فطنة الثعلب ومكره، والذباب وتحايله، والعنكبوت ومكرها في اصطياد فريستها، والطيور وأسرارها، وأسرار خلقها في قوام جسمها وخفّته ولطافتها، وحسن شكلها وألوانها.

قال: فتأمَّل الحكم البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام الأسماع والأبصار، ليتم تناولها لمصالحها، ويكتمل اندفاع الإنسان بها

ثمَّ تأمَّل كيف قادها وذللّها على كبر أجسامها، ولم يكن يطيقها لولا تسخيرُه إياها.

فترى البعير على عِظم خلقه، يقودُه الصبيُّ الصغير ذليلاً منقادًا. ولو أرسل عليه لسواه بالأرض، ولو فصلّه عضوًا عضوًا.

فسل المُعطل، من الذي ذلّله وسخّره وقاده على قوته لبشرٍ ضعيفٍ من أضعف المخلوقات؟

قال: ثمَّ تأمَّل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام، وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم.



فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة، فيدخل في أوردة الكبد، فينصب في تلك العروق إلى الضرع، فيقلبه الله تبارك وتعالى في صورة الدم الأحمر وطعمه إلى صورة اللبن الأبيض وطعمه.

قال: وتأمل هذه النملة الضعيفة، وما أُعطيت من الفطنة والحيلة في جمع قوتها، وادخاره، وحفظه، ودفع الآفة عنه. فإنك ترى في ذلك عبرًا وآيات.

فتأمل أو فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت، خرجت من أسرابها طالبةً له. فإذا ظفرت به أخذت طريقًا من أسرابها إليه، وشرعت في نقله. فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك، اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله.

فإذا كان الذي ظفر به منهن واحدة، ساعدتها رفقتها عليه إلى بيتها. ولكن إن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت.

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه شفاء العليل:

ولقد أخبر بعض العارفين أنه شاهد منهن يومًا عجبًا. قال: "رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة، فزاولته فلم تطق حمله من الأرض. فذهبت غير بعيد، ثم جاءت بجماعة من النمل. قال: فرفعت ذلك الشق من الأرض، فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه، درن حوله ودارت معهن، فلم يجدن شيئًا، فرجعن.

قال: فوضعت، ثم جاءت فصادفته مرة أخرى. قال: فزاولته فلم تطق رفعه، فذهبت غير بعيد، ثم جاءت بهن. قال: فرفعته. قال: فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئًا، قال فذهبن. قال: فوضعت الثالثة. قالت: فعادت فصادفته، فحاولت به فلم تطق. قالت: فرجعت، ثم جاءت غير بعيد وجاءت معهن تلك النملات. قال: فرفعته. قال: فدرن حول المكان فلم يجدن شيئًا.

قال: فتحلّقن حلقةً وجعلن تلك النملة في وسطها، ثم تحاملن عليها فقطعنّها عضوًا عضوًا، وأنا أنظر."



قال: ومن عجيب أمر الفطنة، أنها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرتة لئلا ينبت. فإن كان مما ينبت الفلقتان، كسرتة أربعًا.

فإذا أصابه ندى أو بلل وخافت عليه من الفساد، أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها إذا نشف. ولهذا ترى في بعض الأحيان حبًا كثيرًا على أبواب مساكنها مكسرة. ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة.

قال: ومن فطنها ما نص الله عز وجل في كتابه من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه السلام وجنوده: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨)} [سورة النمل].

فتكلمت بعشر أنواع من الخطاب في هذه النصيحة: النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والنص، والتحذير، والتخصيص، والتفهم، والتعميم، والاعتذار.

فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة.

ولذلك أعجب سليمان من قولها، {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)} [سورة النمل].

ولا يُستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تُسَبِّح بحمد ربها.

كما جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: (نَزَلَ نَبِيٌّ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمْرَ فَأُحْرِقَ قَرْيَةَ النَّمْلِ^١. فأوحى الله إليه: من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تُسَبِّحُ؟^٢ فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ^٣).

^١ هذا الجزء من الحديث رواه مسلم وغيره.

^٢ وهذا الجزء رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد وابن حبان.

^٣ هذا الجزء من الحديث رواه مسلم وغيره.



ثم تكلم رحمه الله عن السمك وكيفية خلقه، وكيف أنه خُلق من غير قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي، إذ كان مسكنه الماء. وخلق له عوض القوائم أجنحة شداد، يقذف بها من جانبيه فتسهل عليه الحركة.

ولم يُخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفُّس، والسمك لا يحتاج إليه لأنه ينغمس في الماء. قال: وتأمل الحكمة البالغة من كون السمك أكثر الحيوانات نسلًا. ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يُحصى.

وحكمته من ذلك أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوانات، فإن أكثرها يأكل السمك.

فلما كانت السباع تأكل السمك، والطير تأكله، والناس تأكله، والسمك الكبار تأكله، ودواب البر تأكله، وقد جعل الله سبحانه غذاء هذه الأصناف، اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة.

ثم تكلم رحمه الله عن الطيور، وكيف أن الله عز وجل جعل جسم الطائر وخلقته، فإنه حين قَدَّر بأن يكون طائرًا في الجو، خَفَّف جسمه وأدمج خلقته. واقتصر به من القوائم الأربع على اثنين، ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعًا. ثم خلق له ذا جَوْجؤ محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجَّه فيه، وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوالا متانا لينهضن به في الطيران.

قال: وكسا جسمه كله الريش يتداخله الهواء فيحمله.

ولما قَدَّر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعًا بلا مضغ، نقص من خلقه الأسنان، وخلق له منقارًا صلبًا به طعامه.



فلا يتفسخ من لقطه الحب، ولا يتعفن من نهش اللحم. ولما عُدِم الأسنان وكان يأكل الحب صحيحًا واللحم عريضًا، أُعِين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم، فاستغنى به عن المضغ.

ثم اقتضت الحكمة أن جعله يبيض بيضًا ولا يلد ولادةً، لئلا يثقل عن الطيران. فإنه لو كان مما يحمل ويمكث حملة في بطنه حتى يستحكم ويثقل، لأثقله وأعاقه عن الطيران.

ثم تكلم عن النحل وأسراره فقال: فتأمل في أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات.

فانظر إليها، وإلى اجتهداتها في صنع العسل، وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة، وأحكمها صنعًا.

فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل، وكل هذا بغير مقياس ولا آلة.

وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها، كما قال: {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا}، {يَخْرُجْ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل: ٦٨-٦٩].

قال: ومن عجيب شأنها أن لها أميرًا يُسمَّى "اليعسوب"، لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به.

فهي مؤتمرة بأمره، سامعة له، مطيعة، وله عليها تكليف وأمر ونهي.

وهي رعية له، منقادة لأمره، متبعة لرأيه، يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته.

حتى إنها إذا أوت إلى بيوتها، وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تتقدم عليها في العبور. بل تعبر بيوتها واحدةً بعد واحدة، بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق، لا يجوزه إلا واحدًا واحدًا.



قال: ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها، يتعجب كل العجب ويعلم أن هذا ليس من مقدورها، ولا هو من ذاتها.

فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان.

فسل المُعْطَل: من الذي أوحى إليها أمرها، وجعل ما جعل في طبائعها؟ ومن الذي سهّل لها سبل ذلك منقادةً ذليلةً لأمر ملكها؟ ومن الذي هداها لشأنها؟ ومن الذي أنزل لها من الطلّ ما إذا جنته، ردتّه عسلاً صافياً مختلفاً ألوانه، فيه غاية الحلاوة واللذازة والمنفعة: {يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه شفاء العليل:

من علم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقي على ظهره ويختلس نفسه إلى داخله في بدنه حتى ينتفخ، فيظنه الظان أنه ميتة، فيقع عليه، فيثب على ما انقضى عمره منها؟ ومن علمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف فيأخذ منه ويضع على جرحه كالمرهم؟

ومن الذي علم الدب إذا أصابه كَلَم أن يأتي إلى نبت قد عرفه وجهله صاحب الحشائش فيتداوى به فيبرأ؟

ومن علم الأنثى من الفيلة أنها إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه؟

لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي ماءً وسطاً تضعه فيه كالفراش اللين والوطء الناعم.

ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجنح الذي فيه الداء دون الآخر؟



ومن علم الكلب إذا عاين الأطباء أن يعرف المعتل من غيره، والذكر من الأنثى، فيقصد الذكر مع علمه بأن عدوه أشد وأبعد وثبة من الأنثى، ويدع الأنثى على نقصان عدوها؟

لأنه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطاً أو شوطين، حقن ببوله. وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن. وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عدوه، فيدركه الكلب.

أما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل منها وسهولة المخرج، فيدوم عدوها.

ومن علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها، حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمّة وحركة حتى يطير معهم؟

ألا تلاحظ العصفور على الحائط تشير إليه كأنك تريد أن ترميه فلا يطير؟ وربما أهويت إلى الأرض كأنك تتناول شيئاً فلا يتحرك. فإن مسست بيدك أدنى حصاة أو حجر أو نواة، طار قبل أن تتمكن يدك منها.

ومن علم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش، وأن يقيما له حروفاً تشبه الحائط، ثم يسخنانه ويحدثا فيه طبيعة أخرى، ثم يقلبا البيض في الأيام؟

ومن قسم بينهما الحضانة والكد، فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى، وأكثر ساعات جلب القوت على الأب؟

وإذا خرج الفرخ علماً ضيق حوصلته الطعام، فنفخا فيه نفخاً متداركاً حتى تتسع حوصلته، ثم يزقانه باللعب أو شيئاً قبل الطعام، وهو كاللبأ للطفل.

فإذا علماً أنه أطاق اللقم، منعاه من الزق على التدرج. فإذا تكاملت قوته وسألها الكفالة، ضرباه.



ومن علم المرسله منها إذا سافرت ليلاً أن تستدل ببطون الأودية، ومجاري المياه، والجبال، ومهاب الرياح ومطلع الشمس ومغربها، فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلّت، فإذا عرفت الطريق مرّت كالريح.

ومن علم اللب، وهو صنف من العناكب، أن يلطأ بالأرض ويجمع نفسه فيري الذبابة كأنه لاهن عنها، ثم يثب عليها وثوب الفهد.

ومن علم العنكبوت أن ينسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلّق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلّت إليها فاصطادتها.

ومن علم الهرّ إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود، ثم يشير إليها بالرجوع، وإنما يريد أن يدهشها فتزلق فتسقط.

ومن علم اليربوع، وهو نوع من أنواع الفأر، أن يحفر بيته في سفح الوادي حتى يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء، ويعمّقه، ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه.

ولما كان كثير النسيان، لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضلّ عنه.

ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل حركته عليه حتى يذهب ذلك السمن عنه، ثم يظهر.

ومن علم الإبل إذا سقط قرنه أن يتوارى لأن سلاحه قد ذهب، فيسمن لذلك، فإذا كمل نبات قرنه تعرّض للشمس وللريح، وأكثر من الحركة ليشد لحمه ويزول السمن المانع له من العدو.



وهذا باب واسع جدًا، ويكفي فيه قوله سبحانه وتعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) [سورة الأنعام].

ورحم الله ابن القيم إذ قال:

هذا وكم لله من آيةٍ مما يُبصره العباد ومما لا يُبصرونه، ومما يقع عليه الحس ومما لا يقع عليه. تفنى الأعمار دون الإحاطة به.

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره، ومن هو فوق العرش ربُّ موحد.

لله في الآفاق آيات لعل *** أقلها هو ما إليه هداكا
ولعل ما في النفس من آياته *** عجب عجاب لو ترى عيناكا
والكون مشحون بأسرار إذا *** حاولت تفسيرًا لها أعيكا
قل للطبيب تخطفته يد الردى *** من يا طبيب بطيئه أُرذاكا؟
قل للمريض نجا وعوفي بعدما *** عجزت فنون الطب من عافاكا؟
قل للصحيح يموت لا من علة *** من بالمنيا يا صحيح دهاكا؟
قل للبصير وكان يحذر حفرة *** فهوى بها من ذا الذي أهواكا؟
بل سائل الأعمى خطأ بين الزحام *** بلا اصطدام من يقود خطاكا؟
قل للجنين يعيش معزولا بلا *** راع ومرعى ما الذي يرهاكا؟
قل للوليد بكى وأجهش بالبكاء *** لدى الولادة ما الذي أبكاكا؟
وإذا ترى الثعبان ينفث سمّه *** فاسأله من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله يا ثعبان كيف تعيش *** أو تحيى وهذا السمُّ يملأ فاكاً؟

-هنا سؤال: لو أن الثعبان لدغ إنسانا وجاء أجله لما تهاذي الإنسان بسبب ذلك السم، مع أن نفس هذه المادة السم موجودة في أكثر مكان حساس في فم الثعبان-



قال واسأله كيف تعيش يا ثعبان *** أو تحيي وهذا السمُّ يملأ فَاكا؟
 واسأل بطون النحل كيف تقاطرت *** شهداً وقل للشهد من حلاكا؟
 بل سائل اللبن المصقَّى كان *** بين دم وفرث ما الذي صفَّاكا؟
 قل للنبات يجفُّ بعد تعهِّدٍ *** ورعاية من بالجفاف رَمَّاكا؟
 وإذا رأيت النَّبت في الصحراء *** يربو وحده فاسأله من أَرْبَاكا؟
 وإذا رأيت البدر يسري ناشراً *** أنواره فاسأله من أسْرَاكا؟
 واسأل شعاع الشمس يدنو وهي *** أبعد كل شيء من الذي أدناكا؟
 وإذا رأيت النار شبَّ لهيبها *** فاسأل لهيب النار من أوراكا؟
 وإذا ترى الجبل الأشمَّ مناطقاً *** قِمَمَ السَّحاب فسَلِّه من أرساكا؟
 وإذا ترى صخرًا تفجر بالمياه *** فسَلِّه من بالماء شقَّ صفَّاكا؟
 وإذا رأيت النهر بالعذب الزُّلال *** سرى فسَلِّه من الذي أجراكا؟
 وإذا رأيت البحر بالماء الأجاج *** طغى فسَلِّه من الذي أطغاكا؟
 ستجيب ما في الكون من آياته *** عجب عجاب لو ترى عيناكا
 يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي *** بالله جل جلاله أغراكا
 أذنبت يا ربي وأذنتي ذنوبي *** مالها من غافر إلَّاكا
 دنياي غرتني وعفوك غرني *** ما حيلتي في هذه أو ذاكا
 يا ربي عدت إلى رحابك تائباً *** مستسلماً متمسكاً بعراكا
 إني أويت لكل مأوا في الحياة *** فما رأيت أعز من مأواكا
 وتلمست نفسي السبيل إلى النجاة فلم أجد *** منجا سوى منجاكا
 وبحثت عن سر السعادة جاهداً *** فوجدت هذا السر في تقواكا
 فليرض عني الناس أو فليسخطوا *** أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا
 أدعوك يا ربي لتغفر حوبتي *** وتعينني وتمدني بهداكا
 فاقبل دعائي واستجب لرجاوتي *** ما خاب يوماً من دعا ورجاكا
 بك أستجير ومن يجير *** سواك فأجر ضعيفا يحتني بحماكا



يا مدرك الأبصار والأبصار لا تدري *** له ولكنّه إدراكا
 إن لم تكن عيني تراك فإنني *** في كل شيء أستبين علاكا
 يا غافر الذنب العظيم وقابلا *** للتوب قلب تائب ناجاكا

إلى آخر ما قال رحمه الله.

العبارة: أن نشكر الله عز وجل على ما أعطانا إياه من النعم، هذا والله تعالى أعلم،
 وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وجزاكم الله خيرا.



الدرس السابع: كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

نختم هذه السلسلة بهذا الفصل، وهو معرفة أسباب كمال اللذة، وأن كمالها لا يكمل إلا بكمال المحبوب وكمال المحبة.

قال ابن القيم رحمه الله في الداء والدواء: "وهذا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه.

والثاني: كمال محبته، واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحب أكمل.

فلذة العبد من اشتد ظمأه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدته وإرادته.

وإذا عرفت هذا، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كل حي وعاقل.

إذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها، فهي تُذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها، أو منعت لذة خيراً منها وأجل.

فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات، وفوتت أعظم اللذات والمسرات؟



وتُحمد اللذة إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة، لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها. قال تعالى: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)}** [سورة الأعلى].

إلى أن قال رحمه الله: "والله سبحانه خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد، وأما الدنيا فمنقطعة، ولذاتها لا تصفو أبدًا ولا تدوم، بخلاف الآخرة فإن لذاتها دائمة، ونعيمها خالص من كل كدر وأم، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين مع الخلود أبدًا. ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده فيها من قرة أعين، بل فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وهذا المعنى الذي قصده الناصح لقومه بقوله: **{يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هُذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)}** [سورة غافر].

فأخبرهم أن الدنيا متاع يُستمتع بها إلى غيرها، وأن الآخرة هي المستقر. وإذا عُرف أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة، ولذلك خلقت الدنيا ولذاتها، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يُذَمَّ تناولها، بل يُحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة. إذا عُرف هذا، فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها: النظر إلى وجه الرب ﷻ، وسماع كلامه منه، والقرب منه؛ كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: **(فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ)¹**، وفي الحديث الآخر: **(إِنَّهُ إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ وَرَأَوْهُ؛ نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ)²**.

وعند النسائي وأحمد عن عمار بن ياسر، عن النبي ﷺ قال في دعائه: **(أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ)³**.

¹ رواه مسلم.

² رواه ابن ماجه، والعقيلي في الضعفاء، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة. (فيه الفضل بن عيسى الرقاشي متروك الحديث. والحديث تكلم فيه العقيلي وابن عدي وابن الجوزي وابن كثير والبوصيري).

³ صححه ابن خزيمة بإخراجه إياه في كتاب التوحيد ساكتاً عليه، وصححه ابن حبان، والحاكم ولم يتعقبه الذهبي.



وفي كتاب السنة لابن الإمام أحمد عبد الله مرفوعاً: «كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن، إذا سمعوه من الرحمن، فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك».

وإذا عُرِفَ هذا، فأعظمُ الأسباب التي تُحصِلُ هذه اللذَّةَ هو أعظمُ لذات الدنيا على الإطلاق، وهو لذَّةُ معرفته سبحانه ولذَّةُ محبته، فإن ذلك هو جنَّة الدنيا ونعيمها العالي؛ ونسبةُ لذاتها الفانية إليه كتَفْلَةٍ في بحرٍ، فإنَّ الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك. فأطيبُ ما في الدنيا معرفته ومحبته، وأنشد ما في الجنَّة رؤيته ومشاهدته. فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها. بل لذات الدنيا القاطعةُ عن ذلك تنقلب آلاماً وعذاباً، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

وكان بعض المحبين تمرُّ به أوقات فيقول: «إن كان أهل الجنة في نعيم مثل هذا، إنهم لفي عيشٍ طيب!».

وكان غيره يقول: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف».

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة، التي هي عذابٌ على قلب المحب، يقول في حاله:

وَمَا النَّاسُ إِلَّا الْعَاشِقُونَ ذَوُو الْهَوَى *** وَلَا خَيْرَ فَيَمَنَ لَا يُحِبُّ وَيَعَشَقُ

ويقول غيره:

أَفَ لِلدُّنْيَا إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ *** صَاحِبُ الدُّنْيَا حَبِيباً أَوْ مُحِبِّ

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب، وغذاء الأرواح؟

وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها.

وإذا فقدتها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، واللسان إذا فقد نطقه.



بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وخالقه وإلهه، أعظم من فساد البدن إذا خلا منه الروح.

وهذا الأمر لا يُصدق به إلا من فيه حياة:

*** ما لَجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ

والمقصود أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة.

ولذات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمها وأكملها: ما أوصل إلى لذة الآخرة. ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب. ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه، فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله، ومحبتة له، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة، وتُعقب آلاماً أعظم منها، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثاناً مودةً بينهم في الحياة الدنيا، يحبّونهم كحبّ الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، فيقول سبحانه وتعالى: {النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (١٢٨) [سورة الأنعام].

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلوّ بغير الحق. وهذه اللذات في الحقيقة إنّما هي استدراج من الله لهم، ليزيقهم بها أعظم الآلام، ويحرمهم بها أكمل اللذات، بمنزلة من قدّم لغيره طعاماً لذيذاً مسموماً يستدرجه به إلى هلاكه. قال تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) [سورة الأعراف].

قال بعض السلف في تفسيرها: «كلما أحدثوا ذنباً، أحدثنا لهم نعمة»، {حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) [سورة الأنعام].



وقال تعالى لأصحاب هذه اللذة: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)} [سورة المؤمنون]، وهذه اللذة تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام.

كما قيل:

مأربُ كانت في الحياة لأهلها *** عذابًا فصارت في الممات عذابا

النوع الثالث: لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا الماء، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعت كمالها. وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة. فهذه زمانها يسير، ليس لتمتّع النفس بها قدر، ولا بدّ أن تشغل عمّا هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: (كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ، أَوْ تَأْدِيبِهِ فَرَسَهُ، أَوْ مُلَاعَبَتِهِ امْرَأَتَهُ فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ)^١.

فأما ما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق، وما لم يُعن عليها فهو باطل^٢.

فالله، الله، يا صاحب السجن! استعن بالله واجمع قواك لما هناك.

وغمّض العينين واصبر ساعةً لزمان.

ألا وإن الموت يطلبك، فكن مستعداً له غير فائرٍ منه، وابحث عن الأسباب المنجية من عذابه، واهرب من السجن المؤبد -أقصد النار-، التي قال الله في حقها: {كَأَلَا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠)} [سورة المطففين].

سجنٌ ليس فيه راحة ولا نوم، بل عذابٌ دائم، ليس منه مفر ولا مخرج.

^١ رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. قال الأرئؤوط: حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده، وهذا إسناد ضعيف لجهالة عبد الله الأزرق.

^٢ انتهى كلام ابن القيم من الجواب الكافي، بتصرف يسير واختصار من المتحدث.



قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} (٣٧)
[سورة المائدة].

فالويل الويل لمن كان من أهل النار، عياذاً بالله، حتى وإن كان من أنعم أهل الأرض في الدنيا.

والفوز كل الفوز من فاز بجنة عرضها السماوات والأرض، وإن كان من أشقى أهل الأرض في الدنيا.

فإن ميزان السعادة والشقاء ليس في دار الفناء، بل في دار البقاء.

فلا يغوينك الشيطان الذي توعده بذلك، فقال: {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} (١٧) [سورة الأعراف].

فرد الله عليه، {قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَّنْ تَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ} (١٨) [سورة الأعراف].

فإذا علم هذا، لا بدّ وقد اتضح أمامك سر دعوة يوسف عليه السلام: {رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} [سورة يوسف: ٣٣].

فلا تفتقر عن ذكر الله، ولا تقنط من رحمته، ولا تياس من روحه، فإنه قادرٌ على إخراجك من هذا الضيق ولو اجتمعت الإنس والجن على مضرتك فلا تجزع، وارض بما قدره الله عليك، فإنما هي حياة واحدة، فلتكن في سبيل الله.

ألا وإن من الله عليك بالخروج من هذا السجن، ألا فلا تفتقر عن العبادة وتترك ما كنت تعمله في سجنك، فتشابهه المشركين الذين قال الله فيهم: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} (٦٧) [سورة الإسراء]، وقال: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ



ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) [سورة يونس].

وبين سبحانه أن من أسباب تفريج الكروب وإزالة الهموم كثرة ذكر الله في الرخاء. قال تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)} [سورة الصافات].

أسأل الله أن ينفع بهذه السلسلة كل من سمعها، وأن يُفرج هم المهمومين، ويكشف كرب المكروبين، ويقضي الدين عن المدينين، ويفك أسرانا وأسر المسلمين.

وأسأله سبحانه أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد. وجزاكم الله خيراً.



لا تنسوا إخوانكم من الدعاء



فهذه كلمات كتبتها في غيابات السجن
وأشجانه وظلامه، وربطتها بالتوكل على الله
ومنه وإحسانه، جعلتها تذكرةً للمؤمنين،
وتسليّةً لأهل البلاء عامة ولأهل السجن
خاصة، فمن الله عليّ وعليها إذ يسّر خروجي
وخروجها بهذه الحلة، فلا تخلو هذه الدنيا
القصيرة من الابتلاء والاختبار، فهي سجن
المؤمن وجنة الكافر، قال الله عنها: (وما الحياة
الدنيا إلا متاع الغرور)، ولما كانت هذه صفة
الدنيا وخستها وما طبعت عليه من البلاء،
فهذا بترت ساقه، وذاك فقد عينه، وهذا ما عاد
يستطيع الحركة، وتلك فقدت أبنائها، وهذا
خسر أمواله، وهذا ذهب بيته، وهذا ابتلي في
السجن، فجاءت هذه السلسلة لتُسَرِّي عنهم
بعض همومهم، إذ إن الله قد ابتلاهم ليختبرهم،
فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط،
فارعني سمعك وفؤادك لعل الله أن يفرج همك
ويكشف كربك ويعلي درجتك.

صاحب السلسلة